النّيْزك

وقَصَص أخرى

بقلم

أحمد القاسمي

عنوان الكتاب: النيزك، وقصص أخرى.
المؤلف: أحمد القاسمي
تصميم وجه الغلاف: المؤلف
رقم الإيداع القانوني: 2023MO3531
الرقم الدولي المعياري للكتب: 2-165-42-9920-978
الطابع: مطبعة الأمنية؛ الرباط؛ رقم الهاتف: 0537724839.

الطبعة الأولى؛ **1445**هـ؛ الموافق **2023**م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لماذا هذه القصص؟

أو السؤال بصيغة أخرى، لماذا كتبتُها، وهي شكل من الكتابة؟ فأبعد من هذا؛ لماذا أكتب؟ وهذا سؤال أفاض فيه نقاد الأدب الكأس؛ والدارسون لنصوص الإبداع، والكُتاب الذين لهم معرفة بالكتابة وباع طويل فيها؛ الذين أدلوا بدلوهم فيها، منذ أن اخترع الإنسان الكتابة وهو يكتب؛ عما يجيش في داخله، وما هو في حاجة إلى تقييده؛ ليعود إليه متى يشاء؛ لأن الذاكرة تخنه في بعض المرات.

أراني مُلزما بكتابة القصة، دون شعور مني أحيانا، وأعرف بعد حين من الزمن أنه لا بد من كتابتها؛ لتظل في متناول القراء، ولا أن لا تُكتب أبدا فتكون في غياهب المجهول، لأنني التقطت خام مادتها من الواقع، من حدث جرى فعلا، من مشهد واقعي له أكثر من تعبير، ويتطلب أكثر من قراءة تحليلية.

وأنا الذي يقول إنني أكتسب أدوات الكتابة؛ من درجة أسلوب لغوي، من تقنيات القصة؛ من تكثيف للأسلوب، من جملة مضغوط عليها، من كلمات غير ناشزة؛ تعبر عن الحدث دون زيادة أو نقصان، فهل الكتابة ثقافة أم دُربة؟ فهي مزيج من هذين، وهما متطلبان.

يُقدّر لي أن أكون في مكان ما، أسير في الشارع؛ أنظر بعين لاحظة إلى الغادين والرائحين، فألتقط صورة ما يجري؛ ما يحدث من أفعال هي من صميم الواقعة، أو أسمع من جليس لي، أو من طارئ حكايةً واقعية، فما الذي يتطلبه مني أنا القاص في الحين؟ هو أن أصب ما سمعته أذناي في قالب قصة؛ لها أعرافها عند المتقدمين والمتأخرين، وبأسلوب يجعلها هادفة، يجذب القارئ بتسلسل حدثها

في الزمن، وقد استوفيت عناصر حكيها (الشخوص؛ المكان؛ الزمان؛ سبب الحدث، الدافع النفسي)، وهناك شيء آخر وهو ذلك النادر في خبر القصة، وخير للقارئ أن لا يظل جاهلا لما يحدث في دنيا العالم، وفيه استزادة من معارفه.

وقد سميتُ الكتاب الذي جمعت فيه هذه القصص؛ بـِ(النيزك)، وهو عنوان لإحدى قصصه؛ قدّمتْ نفسها على غيرها من القصص، أو قدمتها أنا عليها؛ لا علينا؛ ألِعُنوانها المثير؟ إذا كان كذلك؛ فلِنشْر الكتب بعض المشروعية؛ وهي عنونة الكتب بما يُغري بالقراءة؛ بما يجذب القارئ؛ فإن الحسناء تستميلنا بحسنها، وننفر بما ليس فيه ذوق حسن؛ لا بد من أن نتذوق الجميل في النصوص؛ سواء كانت نثرا أو نظما.

أما ترتيب هذه القصص؛ فليس وراءه منهج أو غرض؛ فقد جعلت القصة تتلو أختها في عفوية؛ لأنها متنوعة في مضامينها.

من هنا كانت هذه القصص ثمرة جميع هذا؛ فإلى القارئ هذه المجموعة من هذه القصص المتنوعة؛ وإن كان عددها قليلا، فكثافة أحداثها ولغتها يعوض ذلك؛ إن كنت نجحت فيها، والله -سبحانه وتعالى- ولي من جدّ في عمل وكد.

أحمد القاسمي

المغرب؛ في خريف 1445 هـ؛ المو افق 2023 م.

اَلنَّيْزَك

شَعَر باهتزازات هاتفه في جيب بذلة العمل الزرقاء، وهو يُثبِّت بالصّواميل بطارية جديدة؛ على صفيحتها المخصصة لها من هيكل إحدى السيارات؛ كان قد أبطل الرنين؛ لأن رب محل غسل المركبات وصيانتها؛ لا يُطيق سماع الهواتف، وهي تضِجّ من وقت لآخر، ولا يَسمح بالاتصال بها من حين لآخر، لأن ذلك يُشْغِل عن العمل، فما إن انتهى مما كُلِّف به؛ حتى سار إلى ناحية؛ ماسحا يديه بخِرقة، وكان الجهاز ما يزال يُصوّت؛ ما يعني أن للمُنادي أمرا عظيما، فاستقبلت أُذُنه صوتا جَهُورا، ونُطْقا مُترِيّثا للكلمات؛ يدُلان على أن صاحبها ذو شخصية خاصة، فأنصت إليه بانتباه، فسمعه يقول:

– أكون لا أخطئ في أنك تخرجت من كلية العلوم بدرجة دكتوراه، وبميزة مُشرِّف جدا؛ مع التشجيع.

أجاب دون تردد:

– نعم؛ كانت ثمرة مجهود مُستنْزِف.

سمعه يقول مرة أخرى:

– فإذا لم أخطىء أيضا، فالذي بحثت في مواضيعه، وبمنهج أكاديمي مُحكم، وتخصصت فيه؛ هو علوم النَّيازِك.

أكّد ما سمعه من المتكلم قائلا:

– نعم؛ بحثت في أدقّ ما يمُت بصِلة بالنيازك، وأحطت بجميع ما يخُصّها، ولتعلم أنها أجسام؛ تدخل في باب الأجرام الفضائية، وتسقط على الأرض؛ يتراوح وزنها ما بين وحدات من الغرامات، وآلاف من الأطنان، وهي على نوعين؛ منها ما يتكون من الصخور، وهذه تُسمى بالنيازك الحجرية، ومنها ما يتكون من المعادن كالنيكل والحديد، وتُعرف بِـ...

قاطعه قائلا:
- أوه... كفى... كفى... إنك لا تُحاضر علينا الآن.
ثم أردف سائلا إياه؛ يتعجل الإجابة:
- أَقُلت يا هذا أن وزنها يصل إلى آلاف الأطنان، وأنها تسقط على الأرض؟
أجاب بثقة باحث؛ مُتيقِّن بنتائج أبحاثه:
- نعم؛ ومن يَنْبري يريد أن يُنافحني، فأنا مستعد.
قال مُهدّئا للأعصاب:
- لا... لا... لا أحدا في مستوى علمك بالنيازك يستطيع أن يُحاجِجك.
صمت المتصل مدة ثوان، ثم سأله مرة أخرى:
- إنك حامل لشهادة تعليمية عليا، فأي عمل تتعيش منه الآن؟
أجاب بصوت خافت خجول:
- لا أقول بأنني لم أتوفّق في امتحانات التّعيين، وإنما رسَّبُوني مُقررين بأن التخصص الدقيق في النيازك؛ لا يُؤهّلني لأي تدريس، ثم أن سوق الشغل ليس في حاجة إلى من يُعلمهم في جِرم فضائي؛ لا ينفعهم لا من بعيد ولا من قريب، وأن عُمُري امتدت به السنوات؛ فتجاوز سن التوظيف المقنن، فتابعتُ دروسا في الميكانيكا بأحد معاهد التكوين.
قال المتصل بعطف:
- أعرف؛ إن رائحة أولئك فاحت.
وأردف قائلا:
- إنّنا في حاجة إليك؛ ما دام وزن النّيزك يصل إلى تلك الآلاف من الأطنان، وأنه قد يصطدم بالأرض.
قال بحماس وبيقين:

– إذا سقط بذلك الوزن على مدينة باتساع (نيويورك) أو (الدار البيضاء)، فإنه يُدمرها، وقد أتيتُ في بحثي بأمثلة لذلك، كنيزك (أريزونا)، و(كَرينلاند)، و(جنوب إفريقيا).

قال المُهاتف من بعيد؛ مُنهيا الاتصال:

– لهذه المعلومات نحن نحتاج إليك، وستتقاضى الأضعاف، ستنتظرك سيارة تأتي بك إلينا.

وسمع رنة نهاية المكالمة...

لم تمض عشرون دقيقة حتى اهتز هاتفه مرة أخرى، قال له مُتّصل:

– إذا خطوت في إتجاه تقاطع شارع (أحمد شوقي[1]) بشارع (باتريس لومومبا[2])، ستجد سيارة بنفسجية اللون في انتظارك.

اِمتثل لفتح باب السيارة المصفح والمبطن، ورفع إلى الداخل قدميه عن الأرض؛ لم يجد أحدا يُشاركه المقعد الخلفي، واشتمّ روائح تسترخي لها النفوس؛ كانت السيارة مُسدلة الستائر؛ زجاجها أسود اللون؛ تقصد وِجهة يجهلها؛ كعهده بسنوات الاعتقالات السياسية، وهؤلاء في حاجة إلى معرفته بأحد أجسام الكون فقط، ولا إلى شيء آخر، بعد قطع مسافة؛ دُعي إلى الترجّل منها، ثم أُشير إليه إلى ممرات، وإلى باب يُفتح، وإلى حجرة فسيحة تتوسطها طاولة؛ تجلس إليها أبدان مُرهِبة؛ بأصابع بفصوص من الماس والزُّمُرُّد، ورؤوس صلعاء القُنن، وملامح صارمة؛ سمع أحدا منها ينطق قائلا:

– مرحبا بأستاذنا؛ العالم بالأجرام السماوية... ذلك الكرسي؛ وثارتُه هدية لك، فاجلس.

---

[1] هو أحمد شوقي علي أحمد شوقي بك (1868م- 1932م)؛ أمير شعراء العرب المحدثين بلا منازع.

[2] باتريس لومومبا (1925م- 1961م)؛ مناضل اشتراكي من بلاد الكونغو، وأول رئيس لها بعد الاستقلال؛ أغتيل رميا بالرصاص.

واستمر الصّمت مدة دقيقة، وعيون بشرية تُرسل عليه نظرات ثقة وتحمس؛ فاه أحد أصحابها؛ بيده سِيجار من ملفوف أوراق تبغ مُخمّرة؛ من بلاد (كوبا)؛ قائلا:

– نحن أثرياء، لا سلطانا علينا؛ نستثمر في أي مجال؛ حتى لا يتراجع مال أحدنا، فيصبح من المفلسين في يوم من الأيام، لذلك خططنا لشييد حاضرة مأهولة؛ بأجهزة ووسائل ذكية، وأنت تعلم بأن ممرا سيربط بين قارة أوروبا وقارة إفريقيا؛ عبر مضيق (جبل طارق)؛ ما يسمى بـ(الربط القاري)؛ هل تصورت إلى أي حد سيسنح لكل سيارات السياحة، وأخرى للخدمات، ولشاحنات البضائع؛ ولقطارات الأنفاق السريعة؛ المرور دون تأخر، وبعدد كبير، والعبور إلى إفريقيا، أو منها؛ ستكون مدينتنا العشوائية التوسع مُستقبِلة لها أو في طريقها، لا أظنك تقول بأن أزقتها وشوراعها الموروثة عن حاجات زمن بائد؛ مثل زنقة (سبو)، وزنقة (طنجة)، وزنقة (فلان...)، أو شارع (الكفاح)، وشارع (النصر)، وشارع (الصفصاف)، أو حي (الياسمين)، وحي (قُدامى...)، وحي (الفردوس)؛ ذات الزوايا الغير الانسيابية؛ ممهِّدة لوسائل النقل تلك الكاسحة، ولأغراض كثيرة؟ لذلك رأينا أن ننسف مدينتنا عن آخرها بالدّيناميت، ولا نُبقي منها إلا جدارا مغشوش الإسمنت؛ مُشوه المِلاط للذِّكرى؛ مُحوّط بسياج؛ قضبانه من نحاس يُقاوم صدأ الزمن.

قال مُحتجا:

– وجوامعنا ومساجدنا ومآذنها ومصلّياتنا؟

رد أحدهم بنبرة صوت قوية:

– أتُشكِّكُنا في إيماننا؟ إنها من أولويتِنا، وسنبني كل جامع ومسجد بصومعته ومصلّى؛ في دائرة شعاعات من كل حي.

أسرع، وسألهم:

– وما هو عملي أنا في هذا التشييد الأول من نوعه؟
أجاب المتكلم الأول قائلا:
– أَيَقْبَل الجميع بخُطتنا، وتخطيطنا؟ قطعا لا، وقد اهتدينا إلى طريقة قسرية؛ جاءت على لسان أحدنا؛ حين قال: «لو أطبق نيزك على مدينتنا؛ التي لا يستجيب تصميمها وبناياتها لطموحاتنا، ونفضنا أيدينا منها»، فكانت الفكرة، وهي أن تُتوّجك أنت عالما بظواهر الكون، فتُعلن بأن نيزكا بوزن آلاف الأطنان سيسقط على المدينة، وسيُحطّمها، فيُبادر السكان إلى ترك بيوتهم، ومحلاتهم، ومقرات مؤسساتهم، التي يُحِنّون بها إلى آبائهم وأجدادهم، ويستمتعون بأَرْيَحِية أماكنها، وهذه العمارات الرديئة التصميم؛ تُشم منها رشاوي الصفقات، وهذه البقايا من آثار الأسلاف، التي تقف عائقا؛ من أجل قطاع هش كالسياحة، وسنبني لهم مؤقتا مساكن، ومقرات لشؤونهم العامة مُركبة؛ نُفككها فيما بعد، ونبيعها خُردة إلى الصينيين؛ بعد بناء الحاضرة، وعودتهم إليها.
برز من بينهم آخر قائلا:
– ليس ما سنفعله تمَفْصُلا؛ إنه قطيعة مع ماضي الانزلاقات.
قال بوعي متواضع بالسياسة:
– سيُكذّب علماء الكون؛ من بلدان أخرى مزاعمَكم، ولكي تُصدّقنا نسبة كبيرة منهم تُؤازِرنا، فلا مناص من بناء مِقراب فضائي هائل على قمة جبل (توبقال) العليا، يُضاهي مقراب جزر (الكناري)، ومقراب جبال (البرانس)، نقول أننا رصدنا به النيزك الآيل إلى السقوط.
اِبتسم مدخن السيجار الكوبي، وقال:
– دونك ما طلبت، سيكون المقراب شامخا بأنبوب عَدَستِه بعد أسبوع.

أبرق مركز بحوث الفضاء، إلى بُرُد مواقع وكالات الأنباء والصحف الإلكترونية؛ خبرا بأن نيزكا سيسقط على مدينة بالذات؛ سيرتطم بها بقوة؛ إلى حد أنه سُيدمرها؛ مثل ما تفعل القنبلة النووية، وفي التاريخ المُتنبّأ به؛ تم تحديدهما بناء على حسابات رياضية لإحداثيات المكان، ولتوقيت السقوط، وهي المدينة التي يُطل توسعها العمراني من جهة الغرب على البحر، ومن جهة الشرق على ضفة النهر اليسرى، وما يزال هناك وقت لإخلائها، وبناء بيوت، ومقرات للتجارة وتسيير الشؤون الإدارية مؤقتة؛ وأن عالم الكون الذي ترقّب النيزك؛ رهن إشارة أسئلة الصحافيين.

وقد رُوّع السكان بالخبر، وهناك من حَسِبه عقابا دُنيويّا، فتركوا مدينتهم خالية؛ حاملين منها إلا النفيس؛ من مال، أو معدن، مُشرئبة أعناقهم، ناظرة أبصارهم إلى السماء؛ ينتظرون ظهور النيزك، ثم وهو ينزل على مدينتهم... وهذا ما لم يحدث، والذي عاينوه، ولم يكن خيالا، وهو أن مدينتهم أُقتلعت من أساساتها، وجُرفت حيطانها، ولبناتها، وأُعليت مكانها ناطحات سحاب بزجاج و(ألمنيوم)، وبخلايا شمسية؛ تجوب طوابقها مَرْكبات طائرة ذكية، ووُسِّعت الطرق، وأُقيم بُنيان هنا، وبنيان هنالك؛ يغرقان في محيط من الأعشاب والأشجار، زُيّن بنافورات تُرسل الماء في الجو؛ تعكس الأضواءَ حُزمةً من ألوان قوس قزح، وعُين لكل فرد وأعضاء أسرته سكن، وللمهنيين محالّ، وقد رجعوا بأمل؛ لم يدم إحساسهم به طويلا، لقد جُردت فئة من التجار، وذوي الصنعة من أسباب أرزاقهم، فما أفرزت الحاضرة الجديدة بتصاميمها وبنية طرقها؛ جنسا من المستثمرين احتكروا وسائل الإنتاج.

خرج المتضررون إلى الشوارع؛ مُشهرين بكذب أصحاب الأموال الطائلة عنهم؛ بأن نيزكا سيُبدّد مدينتهم، وأنهم فقدوا أسباب

كسبهم، تقادمت وسائلها، وموادها الأولية؛ بأخرى مبتكرة في كل شيء؛ ظهرت مع المدينة الجديدة، وتوجهوا إلى مركز بحوث الفضاء، طالبين أفراد الجماعة المُخطِّطة، وعالم النيازك، ليجيبوا عن أسئلتهم، وإلا سيُبيدون ما بُني من المدينة الكبيرة، خرج عليهم مُدخّن السيجار؛ بعينين ضيقتين، لا تُلقي للأمر بالا، مكتنز الوجه، تبرق وجنتاه بالدم؛ قال بهدوء:

– ماذا تريدون بعد أن أهلنا مدينتنا لآستيعاب ذلك التطور السريع الوتيرة في الإقتصاد العالمي.

تعالت صيحات القادمين سائلين:

– كذبتم عنا، هي طريقة فكرتم فيها؛ لتستحوذوا بأنماط تسيير اقتصاد لصالحكم؛ ابتكرتموها.

أجاب، وهو يمص دخان التبغ، وينثره بفمه في الهواء:

– هذا عالم النيازك، له إجابة مُقنعة، فاستمعوا له...

تقدم عالم النيازك بتُؤدة؛ بوقار العلماء؛ بشعر ممشوط بعناية خاصة؛ مُسدلة خصلاته، وشارب مبروم، كان قد أُرسل إلى حلاق؛ صنع من هامته شخصا ذا هيبة علمية، وقال:

– إن النيازك على نوعين، نيازك تتكون من صخور، وأخرى من معادن، الأولى تتبخر، أو تنفجر إلى شظايا قبل أن تسقط، والثانية هي التي تهوي من الفضاء على الأرض، والنيزك الذي رأيناه في المقراب هو من النوع الأول، تبخّر وانفجر قبل أن يصطدم بمدينتكم.

قال أحد المحتجين بأدب:

– صدّقناك أنت، ولكن هؤلاء اتخذوها ذريعة؛ لبناء مدينة تستجيب لآستثماراتهم الكبيرة، فقضوا بذلك على فئات كثيرة، كانت تتعيش من تجارتها وصنْعتها.

قال رئيس الجماعة المُهيمِنة:

- لهذا حل.
سألوه بأمل:
- ما هو؟
أجاب باقتضاب:
- تشتغلون في مؤسساتنا أجراء؛ بأجور عالية، قد لا تحصلوا عليها من أعمالكم الخاصة.
أجاب واحد منهم:
- هكذا إذن، تجعلوننا أرقّاء وأقنانا عندكم.
وحاولوا أن يندفعوا إليه، ليُجهزوا عليه، إلا أن أفراد قوة خاصة؛ بوجوه وعضلات مخيفة، مدربون على حماية أفراد الجماعة؛ باستعمال أي سلاح، سواء كان ناريا، أو ذا نصل يطعن وينحر؛ أرجعتهم على أعقابهم.
بعد انقضاء زمن ليس بيسير، والتمدن الجديد المُحتكر؛ ما يزال في جلبة عدم التفاهم، وفوضى عدم التوافق، إذ نظر عالم النيازك في المقراب، فرأى ما أرعبه؛ إنه نيزك بقَدْرٍ؛ بحيث إذا سقط على الأرض؛ سيأتي على اليابس والأخضر؛ على الزرع والضرع، ويُبدد الكائنات، فخرج مُهرولا، وهو يصيح في الناس؛ جَزِعا عليهم:
- إن النيزك هذه المرة حقيقة؛ لا مِراء فيه، لا تُكذِّبوني... وسترون بعد ثلاثة أيام حال مدينتكم، وإلى أين سينتهي، ستُعِدّون أمواتكم بالملايين.
لم يُصدّقوه، فرموه بحجارة حادّة، وأدموه بعِصي غليظة، وأودعه بُناة مشاريع الرّبح؛ أحد مَلاجِئ المجانين.

سيف التّجْريدة

كانت الحكاية قد اكتملت في ذهنه، ولم يبق إلا أن يُنهيها هو، وقد فكر كثيرا فيما سيقوم به في ليل ذلك اليوم من (يناير)؛ أحد شهور الشتاء الباردة والممطرة.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة؛ حين قاد سيارته؛ تاركا بنايات المدينة العالية؛ تُضيئها مصابيح باهتة الأضواء؛ في الطريق الساحلي، ولم ينأ عنه كثيرا، وترجل، وأسلم قدميه إلى الوطء على رمال الشاطئ العصي.

غطى رأسه حتى الأذنين بطاقية صوفية، وأدار على عنقه وكتفيه وشاحا طويلا؛ كث الخيوط، وارتدى معطفا من نسيج (الكشمير) أسود، وخطا مقتربا من البحر؛ فبللته رشة موجة ضربت صخرة بقوة؛ حتى علا ماؤها إلى الأعلى.

كانت أمواج البحر تزحف؛ هائجة، وهادرة، وساحقة ما يعترض طريقها في موسمها ذاك، وكانت غيوم دكناء تغطي وجه السماء؛ تلمع بروق في عينيه، وتقصف الرعود في أذنيه، والمطر ينزل عليه غزيرا.

أغمض عينيه، وبسط يديه للماء المنهمر، واستحضر وجها، ونهاية أليمة، فاضطرم باطنه، ونشج، وصاح بقوة:

– غدوتَ أخي هيكلا مدفونا في قعر ذاك البحر؛ حياة أمك ظلت مأتما عويلا، وكفّا للبصر، وماتت لوعة عليك، وأبوك بقي حتى آخر نفس يُسمع من جسده يتساءل: أأُحرم من عزاء؟ مُتْ يا فلذة كبدي حتى يأتيني المعزون، وفيما يعزونني الآن؟ في إبني! ولم يعرفوا أهو من الأحياء أو من الأموات... أخي... يا ابن أمي وأبي؛ ذهبتُ إلى المقبرة، ورويتُ وأنا متوكئ على شاهدي قبريهما ما حدث

بالفعل، وحقيقة ما جرى، وإني سأثأر لك، ولا قطرة دم على يدي، إنه فعل محكم... لا تقلق، وارقُد مرتاح البال...

اِسْتعَرت في رأسه نار؛ أجّجها ما فعل أولئك بأخيه الضابط البحري، وظل السؤال مِلحاحا؛ مُهيمِنا؛ طاغيا: أهم عتاة؛ جبابرة؛ قاهرون؛ إلى هذا الحد؟ يقتلون لحب في المال؛ للنّهب؛ للاختلاس؛ للتزوير؛ للنزوات؛ لاستقدام الأغرار والمستضعفين إلى المِقْصلة بدل أعناقهم العريضة؛ العنيدة؟

رفرف في ركن عينه طرف لباس، وطرق أذنيه صوت سقوط قطرات على نسيج محكم الخيوط؛ غير نافذ للمطر، فالتفت بجزع، فرأى امرأة تلبس مِمطرا؛ يُضيء وجهها المسحوق في شال أسود؛ بعينين واسعتين مُكتحلَتين مثيرتين، وداعيتين، وبشفتين منفرجتين ترتجفان شهوة؛ سألها:

– ماذا تريدين يا سيدتي؟

نطقت باشتهاء:

– صَقَع جسدي بالبرد...

قال مُتراجعا:

– معاذ الله، وإن المال وفتنتك قتلا أخي الوحيد.

تقهقرت المرأة، واختفت؛ مُتيقنة بأن لا تستدفئ رجلا قُضي على قلبه.

أحس باختناق، فاستنشق نسيم البحر؛ مالئا به صدره، ورفع وجهه للمزيد من القطرات، وتنهد. أعاد الوشاح المرفرف بالرياح، ورفع الياقة، ودس يديه في سخونة الطيات، وصندوقٌ من خشب العرعر لا ينفلت من باله، ثم ترك ظلام المكان، وتدرجت به أضواء المدينة المليونية التي لا تنام، وهو عائد، والمتاجر والمقاهي والخمارات وأركان المدمنين والمومسات.

ترك موقف السيارة، وسار في زقاق ضاق وأقفر؛ في الحي العتيق. صعد إلى غرفته؛ تخفف من لباس الشتاء، وجلس على أريكة؛ ضاما كفه بالآخر، ونظر إلى ناحية هيَجانا، وقام ممتدة يده إلى دُرج؛ أخرج منه صندوقا طويلا؛ بورنيش ملمع، ومُفصِّلات نحاسية تبرق، وقُفل بديع، ووضعه على المائدة، وصار يتأمل ما صنعت أفكاره، وقرأ على صفيحة نحاس؛ شدتها إلى وجه الصندوق مسامير برؤوس ملساء متقنة تلمع: «سيف التجريدة»، وفتحه، ونظر إلى كِساء مخمل أزرق، ودعامتين من المعدن الأصفر؛ يرفعان سيفا من الفولاذ الصلب؛ مقبضه أكثر صدأً؛ طوله ثمانين سنتيمترا، وأخذه سالا نصله من الغمد؛ ليس صفيحة مشحوذة ومعقوفة الرأس؛ تُضرب بها الأعناق، وإنما هو قضيب مدقوق بأربعة وجوه مشحوذة، وحاد الرأس وأمضاه؛ يوخِز، ويطعن، يخترق الصدور، وينفذ من بين عظام الظهر، إنه سيف يتمنطق به ضباط البحرية بأبهى حُلل عسكرية بيضاء وبنياشين، وهم في تجريدة يُستعرضون أو يَحتفلون، عليه نقط سوداء استحالت معدنا منه، قال بصوت مسموع:

– هذه بقع دم تمعدنت... سأثأر به هذه الليلة وقبضتي تتبرأ منه...

أعاده وأغلق الصندوق، واتكأ بظهره على مُبطّن الأريكة، واستحضر وجوها، واسترجع أحداثا...

كان أخوه الضابط أكبر منه، وكان هو تلميذا يقرأ قَصص البِحار، ويسمعها منه وقد عاد من الخِضمّ، بغُرة مِرساتين، وكتفيتي ضابط، ودربه على الغطس بالأكسجين، وعلمه قواعد الإبحار بالأشرعة، فكان جو خوض البحار يشمل البيت، وقد تابع دراسته، فكان اقتراح من أخيه البحري، أن يهيء بحثا في تاريخ البحرية العسكرية لنيل الدكتوراه، وقد بلغ ذلك محققا أمنية المفقود، وكان الإهداء على

الصفحة الأولى من ذلك السِّفر إلى روحه، وكانت قد فُتّحت له أبواب مرافق وحجرات القاعدة البحرية، ليُؤرّخ لأسلحة وآلات وأدوات بحرية، وفي قبو مغبر الرفوف كومة من سيوف التجريدة؛ فرَّدها أمامه البحار المُسترْشَد به، وكان سيف منها مفاجأة له؛ اهتز لها جسده وانحبست أنفاسه؛ عُقدت إليه صفيحة تحمل إسم أخيه، فهو سيفه، وبه قُتل، فغافل البحار، وصنع له صندوقا من العرعر.

وهو جالس بعد عصر أحد الأيام، وكله هول، في إحدى المقاهي الموازية لرصيف فرقاطات وقوارب البحرية العسكرية؛ إذ خطف بصره امرأة قادمة؛ سلمت عليه، واستأذنته الجلوس؛ رحب بها. أخرجت سجارة مدعوكة؛ من جيب سروال من (الجينز) مُفتت الخيوط؛ به بقع وَدَك، وقالت:

– استسمح...

وطفقت تبحث بشرود؛ عن قدّاحة مفقودة، فظهرت يد قدحت لها لهيبا نَتَرته؛ إلى تبغ مجفف امتصته مُحترقا؛ مُحررة سحابة من دخان من فمها، فركز انتباهه فيها: وجهها متجعد، إلا أنه متناسق؛ عيناها زرقاوان، ينسدل على جبهتها شعر أشقر؛ شابت زغبات منه؛ من تحت شال رث؛ باهت اللون. حفر بعينيه عن آثار جمال فائق، وما يزال القد ممشوقا، والتضرُّس فاتنا.

قالت:

– أنا أرملة بحار مات غرقا؛ كلفه رئيس القاعدة البحرية بمهمة على سطح الفرقاطة، وأمر بسلوك خط بحري في يوم هاج فيه البحر، فكان ميلان الهيكل الرمادي بقوة الموج حتفا لزوجي.

سكتت، ومَصَّت اللفافة بعصبية، ونفثت الدخان، وأردفت:

– لِتفْهم... كانت خطة من ذلك القائد؛ ليموت زوجي؛ حتى يختلي بي، ويتخذني نديمة، ومعشوقة، وجسدَ سرير بعد كل سفر

بحري مُعطِّش، وعودة بظمأ إلى لذة مُباحة... فأنا خرِبة الآن... أدمنني ذلك الصنديد البحري كل لذة تدخين المحشوش المجفف، وكحول، وجنس، وطال العمر فشاخ الجسد وهمدت الرغبة، فرمى بي إلى أوعية قمامة الميناء؛ أنت ترى أتسكع في الأرصفة يستطعم بعض البحارة لي.

وأردفت مُحدقة في عينيه:

– لا تدري في أي بحر مات أخوك.

قال بحرقة:

– نعم... وتوفي الوالدان...

قالت:

– أغرقه وزميلين له ليلا الضباط الكهول الأربعة في بحر جزيرة (ليلى).

أخر التفكير في مكان الموت وسألها:

– لماذا؟

أجابت بعد طول صمت وتفكير:

– كانوا مُغتصبين أولئك القتلة، ومُختلسين، ومُدخّني الحشيش، وتُجار مخدرات وخمور معتقة، ومُهربي الفاخر والنفيس على ماخرات الجند، فلا فرصة لمفتش أو متعقب أو فضولي، ولماذا أخوك والآخرين؟ لأنهم كانوا مُتخرجين حديثا، ومن جيل آخر، واطلعوا على ما لا يقبله الضمير. في إحدى الليالي، وهو ذلك الضابط العُتُلّ في حضني سكران، فهذى، وثرثر بضحك، فقال: «استدرجناهم أولئك الصبية إلى معركة بسُكر ثمالة، ونحن في عُرض البحر؛ بسيوف التجريدة، كنت أمرت الوسيم منهم أن يشرب، رد مُتورّعا، ومُتعنِّتا: ما أنا بشارب، حذرته وقلت له: كن مُصاحبي على الرّاح، واشرب يا ابن... وإلا... ، رد مرة ثانية: ما أنا بشارب. قتلناهم طعنا

بالشفرة المسنونة، وأغرقناهم في البحر بثُقّالات؛ في بحر جزيرة (ليلى)، أيقرب أحد من دائرة طلقات خفراء إسبانيا؟ وأقبرنا سيوفهم في قبو تحت الأرض؛ فتية... على أسنانهم حليب أمهاتهم، تمنطقوا بسيوف التجريدة، فخُيل إليهم أنهم قادة بحارة؛ تغلبوا على رهبة البحر؛ لا يخافون زمجرة البحار والمحيطات».

سألها بإصرار:

– إلى أين انتهت بهم أمورهم؟

أجابت؛ خاوية العواطف وغير مكترثة:

– تقاعدوا، وهم الآن شيوخ، أعمارهم ما فوق الستين، ما يزالون يلتقون للذات.

سألها بجدية:

– أين؟

أجابت؛ وهي تشير بأصابعها النحيفة؛ هَدَّها الكحول؛ في الهواء؛ بلا اهتمام:

– في حجرة سرية؛ في عمق نادي بحارة العسكر الليلي؛ يخافهم الجميع.

وتركته مضطربا؛ متفرق التفكير، ومضت...

سافر إلى بحر الشمال، وجذف بقارب مطاطي في الليل وغاص، ودأب بغطسات أسبوع إلى أن وجد ثلاثة أكياس بلاستيكية؛ مغلفة بأصداف المحار والرخويات وأعشاب البحر؛ تبدو منها هياكل عظمية مشدودة بسلاسل إلى كُلل حديدية ثقيلة؛ أبقتها في عمق الماء مدة طويلة، لا قدرة له في ذلك الوقت لانتشالها.

منذ يومين، سمع خبرا من المارة؛ قال بأن أحدا ممن يصيدون بالطعم والصنارة عثر على جثة امرأة الأرصفة البحرية؛ مرمية في جوف مركب قديم نخره ماء البحر المالح...

داهمته صورة الهياكل وهي غائصة، وجثة المرأة يتهادى بها الموج في مده؛ وكان قد عاد من ذاكرته مُسترجعا وجوده في المكان، قام وحمل الصندوق، ووقف في عتبة الباب رافعا عينيه في السماء الملبدة بالغيوم، وغشيه برق، وصك سمعه رعد، والمطر ينزل شلالا. توجه إلى النادي؛ ممصوص الوجنتين؛ منبتة عيناه في ذلك الاتجاه، ودفع بابا من الجدار، ودخل بهدوء؛ جلس أمامه أربعة رجال شُيّاب؛ عريضو المناكب؛ على أرائك وثيرة؛ بينهم مائدة مستطيلة؛ تملؤها قوارير وعلب سيجار، ومسحوق يُشم، وسائل يُحقن؛ انتبهوا هم إليه هو الطارئ بعيون غائبة؛ نطق أحدهم؛ قتله الإدمان والفراغ، وأيأسته الشيخوخة؛ قائلا:

– مرحى... مرحى...بك... ضُحْكتنا هذه الليلة...

وقهقهوا ناظرين إليه مُستصغِرين...

تقدم هو؛ ملفوفا في ألبسته الداكنة؛ لا تُرى ملامحه، وجلس على كرسي خشبي، ووضع الصندوق على المائدة، وفتحه وأخرج سيف التجريدة ودفع به ببطء إلى الوسط، واسترخى بإحساس من اقترب من الهدف.

انكفأت هاماتهم على السيف القديم مبهوتين، ومُتفاجئين، ورفعوا رؤوسهم إليه؛ مُكفهّرة وجوههم، سمع من أحدهم سؤالا:

– من أين لك هذا السيف؟

ومن آخر:

– هذا سطو على ممتلك القاعدة البحرية؟

قال هو بنبرة حادة:

– أخي ثالث الذين طعنتموهم حتى الموت؛ في معركة استدراجية؛ بسيوف التجريدة؛ أملته عليكم أعمال غير مشروعة وغير أخلاقية، وسُكر حتى الثمالة.

التفت أحدهم إلى آخر وقال بغضب:

– كثيرا ما نبهتك أن لا تستأمن العاهرات؛ هذه نديمتك أسرّت بكل شيء؟

رد عليه عاشق الأرملة:

– أُسكت يا مُغتصب الممرّضات؟

وامتشق سيف التجريدة وطعنه به، فسقط المطعون عائما في دمائه.

تحرك آخر وجرجر ردفه على الأريكة واستعد للهرب، صاح عليه الشاهر للسيف:

– مكانك... يا من يُسامر غلمانا يتحركون أمامه بسيقان مُشمر عنها مشتهاة؛ بدوارق الخمرة.

وحاول أن يهجم، فثبط الثالث حركته، وذكّر الجبان الذي حاول أن يلوذ بالفرار؛ قائلا:

– اغتنيت مني قهرا يا مغدقا على الذكران، ولم تكن لي قوة على مقاومتك، وجعلتني تابعا كالكلب، وغانيت غير ما مرة زوجتي، فخذ مني هذه:

واختطف السيف من قبضة القاتل وطعنه به حتى الموت.

حاول الآخر أن يستعيد السيف منه قائلا:

– لقد شفيت غليلك، وانتقمت لشرفك...

وسكت، ما لبثت عيناه أن جحظتا، والتفت إليه كأنه مصعوق، مرتعد الوجه مروعا، وصرخ:

– ستشي بي... إيه... ستبُلغ بي... أليس كذلك... أنا... كنت قائد القاعدة البحرية، المخطط... المحفز... المشجع... الدافع... وأخيرا البادئ بالقتل... إليك هذا القضيب ليغوص في أمعائك، ويُكسر فقارَ عمود هيكلك.

وغرس فيه السيف حتى نفذ، ثم سله من بطنه، والتفت مرتعد الوجنتين المتهدلتين بشيخوخة إلى القادم المجهول، رأى فيه كائنا ساكنا، يغلف جسده البُرود ويتلفع بالسواد، وغشي عينيه المرتخيتي الجفون ضباب، وضعف بصره، ابتسم بيأس، وفغر فمه، فسال لعاب شدقه الشائخ، والتفت حوله، وقال بنشيج:

– ماتوا جميعا... إيه... ماتوا جميعا، وهي أرعشتني خصلاتها الشقراء العائمة وهي تموت؛ يملأ فمها ماء البحر المالح، أرملة ذلك البحار التافه.

تفوه بهذا؛ مُصوِّبا رأس السيف الواخز إلى صدره، ودفعه بحركة القاتل لنفسه، وفار الدم، وتهاوى جسده الميت.

لم يسترجع هو سيف التجريدة، وتركه حيث هو؛ غير سافك لدم، وبرح المكان، تحت مطر وبروق ورعود العاصفة، مُنتظرا أن تصفو زرقة السماء.

حبا صبيّ إلى الموت

كانت دارُنا من بين بيوت يتلاصق بعضها ببعض؛ أمامها طريق ضيق؛ يمتد إلى اليسار حيث ينتهي بساحة يتوسطها حائط قصير؛ تبرز من أنابيب مدفونة فيه؛ صنابير يَسْتسقي منها الماء سكانُ الحي، وينتهي إلى اليمين بأكواخ خفيضة؛ منها ما يزال مبنيا بلبنات من تراب مضغوط، ومنها ما له جُدُر من آجور من مخلوط إسمنتي خشن، وكليهما مسقوف بقصدير صدئ، وفي الجهة المقابلة منازل توازي هذه، فكانت الأبواب والنوافذ تنظر إلى بعضها البعض، وكنتَ إذا خرجتَ من بيتِك؛ ترمي ببصرك إلى الحيطان والأبواب والنوافذ التي واجهتك، وتنظر يمينا وشمالا فترى من يذهب ويؤوب، ولا تجد غير دكان واحد لا يبيع إلا ما هو ضروري. غالبا ما يكون ذلك الزقاق، الذي لا يتعدى عرضه سبعة أمتار؛ خاليا، فقليلا ما تشاهد اثنين واقفين يتبادلان حديثا، فكل يأوي إلى مسكنه في أغلب الأوقات.

كنت في ذلك الزمان طالبا في الجامعة، ولا أخرج إلا لأُطلق العِنان لعينيّ في طول ذلك الطريق، وأرفعهما إلى السماء؛ تكون السحب تُغطيها، أو تكون بادية بزُرقتها، أو أتابع بهما تحليق سرب من الطيور، أو آخر يحط على فروع شجرة من تلك الأشجار التي ما تزال نابتة خلف البيوت، وقد أحمل كُرسيا من خشب قصير الأرجل، وأضعه بجانب حائط منزلنا؛ أجلس عليه وقتا قصيرا.

قبل عصر أحد الأيام من فصل الصيف، جلستُ كما اعتدت على كرسيي ذاك؛ رافعا رأسي إلى أعلى؛ مانحا لبَصَريْ إمكانية النظر في السماء، وحريةَ سرحانهما في الفضاء؛ مُتتبعا بهما تلك الطائرات المحلقة عند ذلك العلو الذي لا تبدو منه إلا بحجم صغير جدا، ويتخلف عنها ما تنفثه، فيصير سحابا أبيض متكاثفا؛ ينتشر

ويتفكّك ويتبدّد، وتُزوِّدني بحلم التحليق في يوم ما إلى بلد من الشمال؛ حيث معاهد وكليات تحصيل العلم الحديث، وأرجع بعيني مُلاحِظا ذلك التفاوت في بناء المنازل لسبب ما، فالمواجهان لي إلى اليمين مختلفان؛ واحد عال بطابق، ونوافذ تعلوها سقيفات إسمنتية مُنكمشة العرض، والآخر المجاور له لم يتعد في علوه إلا ما يُركّب في جداره الباب الخارجي؛ وهو خال في كثير من الأوقات، لا يسكنه أحد بصفة مستمرة، فيَدٌ تقبض بإحدى قطع حديدية ملحمة بأعلى الباب، ورِجل تستند على المقبض؛ يرفعان أحدا يتسلق الحائط، ورأيت في نفس الوقت قطعة إسفنجية مما توضع على أرائك بيوت الضيوف الخشبية الطويلة؛ يُطِلّ طرف منها من أعلى حائط البيت العالي؛ كانت هناك لتُشمّس من برودة بلل؛ يحركها فاعل، وقد انتصبت، وظهر أن وسطها اِنثنى، وظهر صبي يرتقيها حبوا، وبمرح، ووصل إلى قمتها، ولخفة مادة القطعة الإسفنجية الاصطناعية القليلة الكثافة، ولثقله هو ارتفع أسفلها ومالت بالصبي، فهوى إلى فناء البيت المجاور ذي الواجهة الوطيئة.

قمتُ فزِعا، وحِرْت بين أن أصيح بأصحاب البيت الذي سقط منه الصبيّ، أو أتسلق جدران البيت المنخفض؛ لأُسعِفه؛ إذا لم يكن قد فارق الحياة، أو أنادي على جاري الذي يسكن في المنزل المواجه تماما لبيتنا، فحثثت خطواتي تلقائيا إلى باب هذا الأخير الحديدي، ذلك أنه كان الأقرب، ودققتُ بقوة وبدق متتال لا تُمهل من بالداخل؛ سمعت من يرد مُتعَجِّلا يأتي بوطآت سريعة ويفتح الباب، ولم يكن غير رب البيت؛ بوجه غاضب وبأعصاب متوترة؛ يرتدي كما أراد دائما أن يكون حازما وبانضباط البذلة العسكرية الخضراء، ويتمنطق بحزام الجندية العريض، ويحتذي الفردتين الجلديتين السوداوين؛ العاليتي العُنقين، المزررتين بالخيوط الغليظة المفتولة، لأنه

كان عسكريا، ولم أدر في ذلك الحين ما إذا كان عائدا لتوه من الثكنة العسكرية، أو كان يستعد للذهاب إلى خدمته بها. لما وقعت عيناه على الطارق المتعجل تغير وجهه؛ مما كان قد تركه الدق المجهول من علامات الاكفهرار، إلى انبساط فترحاب، فاستعداد لتنفيذ طلب جار عرفه؛ من يحسن الجوار، سألني بدهشة وبشجاعة جندي مقدام:

- كيف الحال... أَوَقَع ما يُسيء إليك؟

أجبته أنا الذي شاهد ماذا وقع، وهو خَطِر، ومشغول بحالة الصبي التي سيكون عليها:

- صبي حبا على إسفنجة معلقة... فهوى.

وأشرت إلى الحائط العالي وإلى البيت المجاور المنخفض؛ لم يتفوه بأي كلمة، وأسرعنا معا إلى الباب، وحاول أن يتسلق الحائط؛ إلا أن ثقل جسده الخمسيني لم يُسعفه، قبضت أنا بجسدي الشاب والرشيق؛ بقضبان الحديد الملحمة بالباب والمُتوِّجة له، ووضعت رجلي اليمنى على المقبض، واعتليت الحائط كما أركب مطية، وقفزت إلى الفناء، وتبعني هو بصعوبة وبعد محاولات مجهدة.

كان الطفل قد غاب عن الوعي؛ لم يصب إلا بخدوش، وما يزال فيه نفس. تلفت جاري حوله، فرأى عمودا طويلا؛ أخذه وأقامه على الحائط، ولحافا ثقيل النسيج كان منشورا على حبل سلكي؛ نشره على العمود مُظللا به الصبي من حرارة الشمس، وأمرني أن لا أبرح المكان حتى يذهب في طلب الإسعاف، واستجبت لأنه له دراية هو الذي يخدم بالجندية بالإجراءات القانونية التي يُعمل بها في مثل هذه الحوادث، فكنت قد سمعت صوت دراجته النارية؛ كان قد شَغَّلها، وابتعدت به بهدير محركها. لم تمض عشر دقائق حتى رأيت الباب يُقتلع من إطاره بعمود ضرب حديدي، ويهرع مُسعفان بحمّالة

ويرفعان إليها الصبي برفق، وتنطلق به سيارة الإسعاف إلى أقرب مستوصف، وكانت والدة الصبي، ونساء أخريات أفرادا من عائلة كبيرة تقطن البيت المنيف؛ قد أُخبرن، أما الرجال ومنهم أب الصبي كانوا غائبين. لم يبق في الزقاق إلا جماعة يتحدث أفرادها من الجارات؛ إلى بعضهن البعض بما وقع بأسى وأسف، وبخوف شملهن جميعا، فكثير منهن أمهات، ولهن أبناء؛ صبية وأطفال.

دخلت إلى البيت بجسد غير ساكن بهول الحادثة، وأخبرت وَالدَيْ بما حدث، حتى يَطمئنّا فيما بعد على حالة الصبي من أبويه الجارين، وصعدت إلى غرفتي، وألقيت على الأريكة بجسدي المتضرر قليلا؛ بصعود الغير المُتعوِّد على حائط خشن، وأنا أسترجع ما كانت عيناي قد التقطتاه، ولم يسبق أن شاهدت مثله من قبل.

كان الصبي قد سقط كشيء له ثقل، وكنت قد سمعت ارتطام جسده الضئيل بالملاط الإسمنتي. بعد ساعة سمعت دقا، فقمت، وخففت إلى الباب بخطوات سريعة، مُتمنّيا أن أسمع خبرا مُطمئِنا، وفتحته فوجدت جاري الجندي بوجه تلوح عليه علامات حية؛ بِبِشر، ورضا وطمأنينة؛ قال:

– لقد نجا الصبي، وهو في حالة صحية عادية.

قلت وقلبي يرفرف بابتهاج:

– إنه خبر يُسعد جميع الجيران، وإن خلفت الحادثة خوفا في نفوس بعض الأمهات؛ إن لم نقل جميعهن.

وكنت قد لاحظت شيئا في البيت الذي سقط فيه الصبي الحابي؛ لم يتنبه إليه جاري المسعف، وأردفت قائلا بيقين وبتأكيد:

– لقد حصل أني كنت موجودا في اللحظة التي هوى فيها الصبي من عل.

قال باعتراف:

- إنه أمر مؤكد.
تابعت كلامي قائلا:
- وكذلك -وهذا متيقن منه- هو أن حائط البيت الخفيض والملاصق لجدار البيت العالي؛ ليس تماما، فبينهما فراغ مليمتري؛ هو الذي أبطأ من سرعة سقوط الطفل، وخفف من ثقله؛ لقد ضرب جسد الصغير فيه، فلم يصطدم بتلك القوة، وإنما تدحرج، فاستقبلته أرض فناء البيت المنخفض بحنان.
قال بعجب:
- كنتَ حاضرا في اللحظة، ويكون جدار البيت مُنخفضا، وقد كبح إلى حد ما جسد الصبي، فيُكتب له استمرار حياته.
وافترقنا؛ توجه هو إلى بيته راضي النفس كما يبدو، وعدت أنا إلى غرفتي سعيدا؛ منفرج الخاطر؛ مرتاحا بما جعل الصبي أن يعيش.
مرت على هذه الحادثة ستةٌ وثلاثون سنة، فهي تقريبا عمر ذلك الذي لم يقض في حبو الصغر، ولا يعلم من شاهده بجسده الضئيل، وهو يحبو إلى الموت، وكيف بقي حيا ينعم بالدنيا، ويجهل الكيفية التي ثُبط بها سقوط ثقله، وما تنقبض له نفسي وأروّع به من وقت لآخر؛ كلما حضرني ذلك؛ هو أن جميع الصبايا يحبون بضع مترات.

الْفَرّامَة

ارتفع صوت ديك في سكون ذلك الليل؛ قبل بزوغ ضوء الشمس بقليل، وفي امتداد تلك الأرض التي خلت؛ إلا من بيوت متفرقة هنا وهنالك؛ مبنية حيطانها بالحجر والتراب المحليين، ومسقوفة بغطاء من التراب نفسه، ومن جذوع أشجار الغابة القريبة؛ يسكنها الأفراد من القبيلة، ودار متميزة في بنائها؛ بتصميم غير معهود، ومِرأب، واصطبل، وحظيرة، وخُم، ومخزن، وتُشاهد في جوانب من المكان آلات الحرث والحصد والدَّرس، وأداة ضخ البنزين، وسيارة من نوع (سيتروين تراكسيون) سوداء؛ (موديل) 1950 م، يقوم جميع هذا وسط مساحة شاسعة؛ مغروسة قطعة منها أصغر بأشجار الثمار والخضر والبقول، وعريش كَرْمة، والأخرى الأرحب تربتها مفلوحة؛ مُستنبتة بسيقان الحبوب، ولا يبتعد ذلك عن الباب الحديدي الذي تؤدي إليه قنطرة من جذوع الشجر؛ تصله بطريق مُترب؛ يطول يسارا إلى سوق أسبوعي، ويمينا إلى عمران قرية. يسكن البيتَ أوروبيّ من أصل فرنسي؛ يعمل في مزرعته عدد غير قليل من سكان الدواوير والقرى، لأن بلاده فرنسا القوية قَسَرت سلطان الدولة الشريفية على توقيع عقد حماية.

استيقظ راع في ذلك الوقت على عقيرة صاحب العُرف الزّاهي؛ تُحكم قبضته على عصا، وعلى كتفه جرابه؛ يتقدمه كلب حراسة، وساق قطيعا من الغنم والماعز؛ هابطا حَدورا إلى ذلك الوادي؛ الجاري ماؤه، والمعشوشبة ضفافه، والمورقة أشجاره، وانتشرت النّعاج والحُملان والخرفان والمِعاز؛ بأصوافها البيضاء وشعورها السوداء؛ تقضم ما نبت، واستساغته، وركض الكلب مُستكشفا، وتوقف، ورفع رجله، ولم يطأ بها، وتقهقر، وزحف مرة أخرى، وتشمم ورجع،

تنبه إليه الراعي فسار، ونظر من بين أشجار قصيرة إلى جثة رجل؛ دماؤها متخثرة؛ مفرومة اللحم، وغائرة الخدوش؛ مطموسة الوجه؛ مُفتت ثوب لباسها.

ما أغربها جثة وقعت عليها عينا الراعي!

تراجع مفزوعا، وصعد المنحدر، وأرسل نظراته في جميع الأرجاء القريبة، فرأى أحد أقربائه؛ ظهره مُنحني، وساقاه غارقتان في نباتات حوض، يَحُشّ حُزم النعناع في ذلك الصباح الرائق، بمنجل مشحوذ الشفرة، فنادى عليه؛ مُلوحا بيد حاثّة؛ دالة الحركة على غير المألوف، رمى ذلك الفلاح مِحشّه والحزم المحشوشة، وجرى يتطوح به الحدور، فشاهد ما روّعه، وفي الوقت نفسه وصل إلى آذانهما معا وقع حوافر بغل، فنادى على راكبه، وهو فرد منحدر من الأجداد، ولفت انتباه آخر وآخر وآخر وقوفهم، فقدِموا، فتناقلت الألسن الخبر، فشاع.

شُرّحت الجثة، ولم تُعرف الأداة التي سُحلت بها، وكشطت اللحم، ونجرت عظام القفص، وما قاد إليه التحقيق هو أنها لرجل من بلاد نائية، ودُفنت في مقبرة قمة تل بعيدة.

مر زمن على ذلك ليس بطويل، وكان مما اعتادت عليه نسوة دواوير البادية، وهن في مسيس الحاجة إليه، ومناسبة يحنِنَّ إليها بعد أسابيع؛ هو أن تترك كل واحدة من جماعتهن بيتها في صباح خريفي؛ مشرقة شمسه؛ حاملة على هامتها طستا كُوّمت فيه أفرشة وألحفة وألبسة، وسطلا قصديريا فيه جِزّة صوف مجزوزة؛ يقصدن عينا، وغديرا؛ يجري ماؤها فيه؛ تنبت في مستنقعها خميلة نبات السّمّار، ويُسمع منها نقيق الضفادع، وعلى الضفة شجرة تين؛ يُغنين وتترنم حناجرُهن بأصوات شجية، وتداعب إحداهن أخرى بدفعة مُثيرة من كتفها، ويختلسن بنظرات استمالية بعيون واسعة وكحيلة؛ إلى قَوام راع، وهو قلّ ما يلتفت إليهن.

بعد غسل الأنسجة الصوفية والأثواب المخاطة، والصوف التي غدت بيضاء كالسّحاب؛ بحِذقهن في الدّعك والتّنفيش؛ اشتهت نفوسهن إلى التفكّه بحبات التين من تلك الشجرة البرية؛ ذات الأوراق العريضة الخضراء؛ مغسولة بماء الينبوع البارد. حركت إحداهن الفروع المثمرة، فتذرذرت منها الحبات السوداء، وهوت في ماء النهر الصغير؛ حملها جريانه السريع بعيدا؛ بين سيقان السّمّار؛ تبعتها بإلحاح، وقد علت وراءها ضحكات جاراتها، لكن رجلها اصطدمت بشيء ضخم، فنظرت، فرأت جثة منهوشة اللحم؛ مجدوعة الأنف، فصاحت، وتراجعت إليهن بخوف عارم، وكان ما نطقت به هو كلمة مُريعة، فجمعن ما غسلناه وهو ما يزال يقطر ماء، وجرين.

كان الراعي قد سمع صراخ المرأة، ولم يكن مما اعتادته الأذن البدوية، فجاء إلى الجدول، فرأى الجثة، فأنبأ آخر، فذاع الخبر.

شُرّحت الجثة، فلم يُدرك كيف مات صاحبها، ومن الفاعل، وبأي أداة سُحلت ونُهشت وفُتّت ثوب ما ترتديه، وتوصل المحققون إلى أنها لرجل من قرية نائية، فدُفن في مقبرة قمة ذلك التل.

والجثة الثالثة المقطعة اللحم والمنحورة الحنجرة والمتهاوية الأذنين؛ كانت بين جذوع ودروع دغل نبات الصّبّار؛ التقطتها قبيل انبلاج الشروق عينا سار ليلا؛ يقود حمارا وخروفا؛ في طريقه إلى السوق الأسبوعي؛ ليبيع الدابة والأقرنَ ليشتري أرض تشفيع.

والرابعة كانت في نادِر من تبن الدّرس قديم؛ تتالت عليه أمطار فصلين؛ في مزرعة مهجورة؛ كانتا كالاثنتين؛ القاتل مجهول، والكيفية غريبة، والمقتولان من أرض متنائية، ودُفنتا كذلك في مقبرة قمة التل.

قال أحد ممن يسكنون تلك البادية، وهو على مطيته؛ إلى من يركب ظهر دابة؛ كانا يتوجهان معا إلى حانوت بدار على جانب ذلك الطريق الوحيد:

– أنظل نستيقظ في يومنا على جثة مشوهة؛ يُحمل إلينا خبر وجودها بأراضينا هذه، وقد رُوّعت القبيلة؟

جاراه مرافقه فيما قال بإيماءة من رأسه، وقال:

– لندعو رجال القبيلة إلى التشاور فيما نفعله.

اجتمع عشرة من الكهول والشيوخ، وكان ما اقترحه أحدهم هو ما اتفقوا عليه، وهو أن يقصدوا ذلك الفرنسي صاحب المزرعة المترامية، والبستان الوافر الأشجار، والبيت ذي الأركان المدعمة والمسقوف بالقرميد الأحمر، لأنه متعلم وعلى علم بالدوافع والأسباب، وبوسائل الأمان.

تحت ممر يمتد إلى باب البيت؛ مسقوف بقطع من الخشب، يسرح عليها جذع وأغصان كرمة؛ تتدلى منها عناقيد العنب الخضراء؛ اجتمعوا بالفرنسي، وطرحوا عليه المسألة، وهو الذي لا يغيب عنه ما يحدث في البلاد كلها؛ قال:

– إن حالة الجثث لا تدل إلا أنها بفعل حيوان لاحم مفترس؛ أهو ذئب أم ضبع...؟

لم ينه ملاحظته واستنتاجه؛ ذلك أن أحد أفراد الجماعة القرويين؛ قال بحماس:

– حدّثني أبي عن جدي؛ في إحدى الأمسيات المقمرة؛ أنه وأصحاب له؛ كانوا يعودون من رحلات الحصاد؛ فيشاهدون ضبعا هائل الفك، بأنياب وقواطع تُكسر العظام، وتفرِم اللحم، وهو يطوف في الأراضي المحصودة القريبة من بيوت الدواوير.

قال الفرنسي:

– لتتأكدوا إذن بأن اللاحم ضبع، وليس غيره من اللاّحمين، فهلمّوا مسلحين على الأقل ببندقيتين؛ إلى الغابة والأودية والأخاديد والسفوح؛ لنقتل الضبع الذي ينهش لحم طريدته الآدمية وهي حية تُقاوم مقهورة.

قاد الفرنسي جماعة البدويين؛ مُسلحا بالبندقية، والأخرى زوّد بها أحدا منهم؛ متدرب إلى حد ما على تصويب ماسورتها، وكانوا بين خَرَجات تعقب ضبع لا وجود له إلا في خيال القرويين؛ يُولِمُون الفرنسي على ضأن مشوي على نار مستعرة؛ مدهون بسمْن بَلَدي مُعتّق، وقنينة خمر؛ يبعثون بأحد منهم لشرائها من مدينة عامرة. دأبوا مُقتدين بالفرنسي أياما دون أن يعثروا على ضبع أو حتى على آثار له، وعادوا إلى بيوتهم ومزرعاتهم بيأس وخوف، واستبدت بأحدهم كآبة شديدة، وصار يهذي بضبع يتربص به وهو في بيته بين عِياله.

ما قبل ظهيرة يوم قائظة، وكان البدويون؛ أطفال ونساء وكهول وشيوخ؛ ينتشرون في الحقول؛ يحصدون السنابل الناضجة الصفراء بالمناجل، ويهمزون أرداف الحمر بالعصي، وهي محملة بحُزم من الحصيد إلى البيادر؛ رأى أحدُهم رجلا يسوق حمارا؛ على بَرذعتِه جسد رجل متدلي الرأس والأطراف، فنبه الآخرين إلى ما رأى، فهرعوا؛ قال لهم صاحب الحمار بأنفاس متقطعة وهلع:

– ما تزال فيه بقية حياة.

نظروا، فرأو جسدا بحالة تلك الجثث التي وجدت في أراضي بلادهم. اتجهوا به إلى أقرب بيت، ومددوا الجسد الحي، وسمعوا ما يُتمتم به:

– إنه الفرنسي... انهال على رأسي بمِفكّ ميكانيكي كبير، و...شغل الدّرّاسة، ورمى بي في جوفها؛ لفظتني بجسد مفكك العظام... مرخي المفاصل... مطحون اللحم، راقبني حتى عرف أنني

أحمل ما يرمي به من جرائد وأوراق- كان يُكرّشها ويرميها في وعاء القُمامة- إلى جماعة تنظيم؛ لتستْعلِمَها عن أمور؛ تقاوم الوجود الفرنسي... وتستعد لمواجهة أعوان أجهزة فرنسا الاستخباراتية بالسلاح، والجثث؛ ثلاث منها لمُلقِّمي أشجار ضيعته... قُتُلوا بالطريقة نفسها... حتى... لا ينتظموا...

وصار يلفظ أنفاسه الأخيرة، فيكون قد قَضَى، ودُفن بمقبرة التل؛ بين شهداء آلة الدّرس الفرّامة.

فعل أمر مُستغرب

كنت أسافر من وقت لآخر إلى البادية، هروبا من التعب الذي ينالني من العمل الـمُضني بالمدينة؛ إلى أن يحين وقت للعودة أنا مُلزم به، وكانت تجمعني بابن عمتي هنالك جلسات عائلية حميمية، وكان ألذ لي هو ما يحكي علي؛ مما حدث في تلك البادية الواسعة، التي تمتد أراضيها إلى سفوح وأودية وفجاج جبال عالية تضرب بقِممها إلى الأعلى؛ إلى أن يتجمد فيها الماء؛ بانخفاض درجة حرارة الأجواء العليا، وتكسوها ثلوج في فصل الشتاء البارد.

فمما رواه علي هو ما وقع أيام الاستعمار الفرنسي للبلاد، واحتلال دولة لبلد آخر فيه استضعاف وقهر، واستعراض لقوة العَدد والعُدّة، التي لا تُقاوَم ولا تُقهر، ونشرٌ لفُرق عسكرية مُدججة بالبنادق والقنابل والمدافع، والدبابات المدرّعة، وبناءُ الثكنات العسكرية، فيقوم أفراد من تلك الفُرق المنظمة باجتياح المدن والقرى والدواوير المنتشرة في بِطاح البادية؛ لجهض أي محاولة دفاع عن النفس أو مقاومة، فقد يفعلون بأناس عُزّل أشياء كثيرة، ولا يعترض طريقهم إلى ذلك أي أحد، ولا يَثنيهم عنه أو يردعهم.

فماذا نطق به ابن عمتي على مسامعي؟ وكان قد شاهده بعينيه اللتين لا تُكذِّبانه، وفي لحظات من وقت حكيه كانتا تشعان بحماسة الأبطال، لأنه كان حاضرا، وإنه لَحَظٌّ لم يُؤت لغيره، وفرصة تسنح له؛ ليُخبر أيَّ أحد بما رآه؛ يلتقي به أو يضُمّه وإياه مكان يحلو فيه سمر الحكي؛ على ضوء قمر الخلاء وهدوء الليل المطبِق.

حكى فقال، وعيناه تدمعان حنينا، بأن الجو في ذلك اليوم كان صحوا، فقد خلت السماء من الغيوم، ومن ضباب قد يُغطي وجهها الصّبوح دائما، فبدت زرقتُها الغير المخفية الغامقة، فأضافت بها

جمالا على الدنيا؛ جنبا إلى جنب مع خُضرة النباتات، وإزهار هذه في شهر (يونيو)، ولون بُني تصطبغ به تربة غير مزروعة، وألواح صخرية عرّتها المياه؛ فيما مر من أزمنة سحيقة في القدم، فانشرحت الصدور بالألوان المختلفة والعديدة، وجرى ماء العيون رقراقا، ومُتلألئا بأشعة الشمس، وصهل حصان هناك بعيدا، ونبح كلب حراسة، وسُمع ثغاءُ قطيع من الأغنام.

وفي غمرة هذه الطبيعة التي تملؤها تغاريد العصافير، وتُصدر أجنحةُ الطيور المحلقة حفيفا، وبرغم كل هذا فهناك صمت البادية وسكونها الغالبان، كان يرعى ابن عمتي قطيعا من الشياه؛ غير بعيد عن جانب الطريق المعبد، الذي يربط بين المدينة وسوق أُسبوعي؛ نادرا ما تمر منه سيارة أو شاحنة أو دراجة نارية؛ في غير يوم السوق، وتسير فيه عربة واحدة أو عربتان؛ يجرها واحد أو زوج من الخيل أو الحُمر أو البغال؛ تُنقل بها حُزم سنابل محصودة إلى مكان الدّرس، أو أكوام تبن الحصاد، أو صناديق خشبية أو سلال مجدولة بالدوم؛ تُحمل فيها ما تُثمره الحقول المسقية؛ من خضروات وبُقول، وغير بعيد عنه؛ في الجهة المقابلة له؛ ما بعد عرض الطريق؛ راع آخر لا يتوقف عن التلويح بعصاه؛ في اتجاه خرفان ابتعدت واقتربت من جانب طريق الإسفلت الخشن، وعن التصفير بلسانه؛ مُنبِّها إياها، وكابحا جماحها واندفاعها بشراهة؛ إلى سيقان السنابل الممتدة والحلوة المذاق.

ويمضي كل واحد منهما كأنهما يتنافسان في إطلاق العنان لمُجترّاتهِما؛ كل في حِماه، ويصل ابن عمتي في روايته إلى ما تفاجأ به وقتها، وقد طرق سمعه أصوات مُقعّرة وحادة؛ تصدر من محرك مركبات ميكانيكية، فالتفت فرأى سيارة من نوع (جيب، JEEB)؛ يجلس بانتباه إلى مقود عجلاتها عَسْكري، وإلى جانبه آخر، وكلاهما يُثبّتان قُبعتيهما الخضراوين بعناية وبحزم، تتبعُهُما شاحنة غير مغطاة،

يركب في جزئها الخلفي جنود يجلسون إلى حد ما بانضباط؛ كانوا يمرحون، وترتفع حناجرهم بالصياح، وترديد نشيد وطني، ومرت بهما المركبتان بهؤلاء العسكريين؛ ذوات محركات الوقود، واستمرتا في الطريق، ولم يُمِل ابن عمتي -كما قال- بوجهه عنهم، فقد ظل يتتبّعهم مُتسائلا عن المدينة أو القرية التي تؤدي بهما الطريق إليها، وفُوجئ مرة أخرى، ودب إلى نفسه بعض الخوف، وقد شاهد سيارة (الجيب) تقف، وتُفرْمَل خلفها الشاحنة، ويدور السائق بالسيارة، فتبدو مقدمة هذه تدنو راجعة، ويقترب صوت محركها فيثير التوجس والوحشة في باطني الراعيين، وينظران إلى بعضهما البعض بعجب، وإلى السيارة العسكرية المرهِبة، فكان سؤال واحد يسيطر عليهما وهو: «ماذا يريد هؤلاء العسكر منهما؟»، أسيُسألان عما لا يعرفونه، أهو المكان الذي ينتهي به الطريق؛ هل سيخطِفون أحدا منهما؛ ليتخذوه خادما مُستسلما لقدره في ثكنتهم العسكرية؟ وسمعت الأغنام دنو السيارة، فالتحمت واضطربت، وضلت عن الاتجاه الذي ستهرب إليه، وحاول الراعي تهدئتها، وإرجاع الطُّمأنينة إليها.

ترجل القائد، والمُميّز بقَوامه وقُبعته، ونياشِينِه، وسار قاطعا أجمات لنباتات يابسة قصيرة؛ إلى أن اقترب من الراعي، وتحدث إليه، وابن عمتي كما أكد كان يتابع من بعيد ما يجري بقلق، ولم يطُل كلام القائد مع الراعي، وخطا راجعا ونادى على أربعة من الجنود، فنزل هؤلاء من الشاحنة باستجابة خُضوع وسريعة، فتلقوا أمرا من قائدهم العريض الجسم والفارع الطول، والراعي يأتي بحركات من يديه مُتضرعا ومُستعطفا، وجرى يحاول أن يحول بين الجنود وخرفان من قطيعه، فدفعه أحدهم حتى سقط على الأرض، ولم يستسلم هو، فقام وحاول أن يضرب المتعدّي عليه بعصاه الغير المُقلّمة اللّحاء والناتئة

الفروع، فأخذها الجندي من يده بعَنوة وبقوة وكسَّرها إلى نصفين؛ بالضغط عليها على ركبته الصلبة ورماها، وعاد مرة أخرى وأبعد الراعي؛ مُهدّدا إياه بتوجيه قبضة يده المعقودة الأصابع القوية؛ إلى وجهه الممتص الوجنتين والمحترق بأشعة شمس البادية، فخلت الأرض، ومُهّدت للأربعة المندفعين بعمى مرضي، وقبض كل اثنين منهم على كبشين أقرنين سمينين، وجروهما، والتراب ينتشر ويرتفع بالأظلاف العصية والصعبة الانقياد، ثم حملوهما في الشاحنة، وكان القائد قد أخذ مكانه على كرسي السيارة المتأهبة، وأشار بيده القابضة بالعصا المصقولة، والملمعة والمطعمة بالمعدن، وبتيه؛ بالتحرك؛ مرفوع الرأس، فما يُنجِزه من أعمال هو مستمد من نظام عسكري متماسك وصارم، ولم تكد الكتيبة تترك المكان، وتبتعد سيارة القائد والشاحنة؛ حتى شوهد فتية ونسوة يعدون حُفاة؛ في اتجاه الراعي المسلوب الخروفين والضعيف، وقد حركتهم دماء الانتماء إلى القبيلة، واستعرت فيهم عاطفة القرابة، وتحمسوا للذود والمناصرة؛ حاملين المَدارَى والمُديات والمناجل والهراوات والعصي والحجارة، ووقفوا يتوعدون أولئك الجنود وقائدهم، وقد اختفوا في أحد مُنعطفات الطريق.

تصوّر ابن عمتي آنذاك -كما نطق بذلك- كيف سينحرون أولئك المُرتدِين للزيّ العسكري، المُحاكة خيوطه بإحكام خاص الخروفين؛ طعنا في نحريهما بالسكّين، وكيف سيشوون لحمه على جمر ملتهب بالنار، وسترتفع رائحة الشواء في أرجاء الثكنة، وسيمزِجون قطع اللحم الناضجة باللهيب والساخنة؛ بجُرعات من مشروب النبيذ الأحمر، وجِعة مُسكرة مُقطّرة من حبوب نباتية، وبقُبلات يطبعونها على وَجْنات وأعناق وصدور نساء يحترفن مصاحبة الحاملين للبنادق، والمحافظين على دم وجه بلادهم، التي لا

ينبغي أن تتقهقر عن ساحة منافسة قريناتها من الدول الأخرى؛ والمستميتة في الاستيلاء على المزيد من مساحات الأرض الجغرافية.

وقد انتهى ابن عمتي من حكايته مُتأسّفا، وغُصّة الإحساس بالاستضعاف التي ظلت في حُلوق القرويين، ما تزال في حلقه هو أيضا، لأنه فرد من دمهم، واستغربوا بعض الشيء لفعل أولئك العسكر، لأنهم لم يعهدوه، لا هم الأحياء، ولا آباؤهم وأجدادهم الأموات.

آثار على رمال الشاطئ

عاد إلى بيت الوالدين، وهو من بين بيوت قرية يسكنها الصيادون الذين يخوضون أمواج البحر بقوارِبِهم الخشبية، وبشِباكهم المُرممة؛ بعد غياب دام سنتين.

كان قد ركب القطار من المدينة التي كان يتابع دراسته بإحدى كُلّياتها؛ إلى محطة سكة حديد انعزلت؛ على بعد مئات الأمتار؛ عن منازل قليلة، ودُكّانين، ومحل جزارة، ومقهى بكراس وموائد؛ مُركّبة بمنشار ومطرقة مسامير، ومصبوغة بالأزرق، وترجل من إحدى العربات في وقت العصر، وسار أكثر من نصف ساعة، وصوت محرك القاطرة يتبعه؛ في طريق ضيق مُتترّب؛ بين سياجات من سيقان قصب عالية ومورقة؛ تحيط بالحقول؛ إلى أن أشرف على شاطئ البحر؛ حاملا بيمناه محفظة كُتب وكراريس وأقلام، وتتدلى من كتفه الأيسر حقيبة حوائجه بحاملها، فأحس بنسيم يلمس وجهه؛ ببرودة منعشة؛ الذي جف بالتحديق الطويل؛ في مِداد كُتب بيبليوغرفية البحث في علم من العلوم الإنسانية؛ أنجزه ليحصل على (دبلوم) يؤهله إلى مرحلة نيل شهادة الدكتوراه.

وكان قد طال زمن لم يُرفرف فيه طرف لباسه بريح خريفية، لأنه كان حبيس جدران حجرة مكتراة من حُجر حي ضيقة أزقته، ومكتظ بالسكان، فكان صدره قد انشرح بذلك، وفي هذا الوقت، وقلبه حي يدق بغير انقباض في عضلته، وسرى نشاط في جميع جسده، وامتد شعور من باطنه؛ ظهر ابتسامةً على أديمه؛ فكان بسعادة طور من حياته؛ كان قد غاب حتى حقق ما كان يرغب فيه، ويسعى إليه باجتهاد، وبمدة اشتد بعدها شوقه إلى والديه، وإلى حجرته التي ما تزال مُؤثثة بسرير خشبي، وبخزانة كتب من أنابيب

قصب جافة، ومكتب صغير، والقرية، والشاطئ الذي حبا على رماله وصخوره، وسبح وهو طفل في ماء محجوز جزرت عنه الأمواج، وعام في البحر وهو فتى بساعدين يتقوّيان.

دخل إلى البيت، فكان لقاؤه بوالديه فرحة، وعطفا وحنانا، وغمرته حجرته؛ بحنين إلى فراشه، وغطائه، وكتبه، ودفاتره القديمة، وأقلامه المُبراة، وفرشاة رسوماته، وأصبغته.

ويزداد اطمئنانا، ويرتاح باله؛ عندما يتذكر مقالات كتبها، ونشرتها مجلات وصحف ورقية ورقمية، غدا بها صحافيا في أحدها، ويتلقى أجرا على ذلك، فيكون قد تعلم وتثقف وتمرن، وشحذ له أسلوب كتابة يسبر به القضايا، ويبحث عما يستوجب، أو يتطلب الكتابة عنه.

في الغد استيقظ باكرا على ضوء مُشرق؛ شعّ من الكُوّة، وتناول فطوره، وحمل كتابا، وخرج؛ يريد أن يمتع نفسه بمشاهدة حركة نشاط لا غنى للشاطئ عنها؛ كما عَهِد هو، وهو رجوع الصيادين بقواربهم في ذلك الوقت محملة بصناديق السمك، وبالشباك المكومة، وهدير الجرار القاطر للقوارب، والذي لم تسمعه أذناه في ذلك الصباح كما اعتادت، ومزاد يتحلق فيه البائعون، يتزايدون في أثمنة الصناديق، فلم ير إذن أيا من ذلك، ولم يسمعه، وطفقت عيناه تتنقلان في أرجاء الشاطئ الفارغة؛ إلا من قارب مفككة قطعه؛ متهرئة أخشابه؛ ورأى شبكة مثلومة؛ منشورة عليه، وتاهت عيناه تلك في بحر خال؛ لا قاربا يطفو عليه، وخطا، ولم يبق غير الرمل يُلقي إليه ببصريه؛ فالتقطا آثار أقدام تتالى قادمة من البحر، وحَفْرَ عجلات جرار القَطْر؛ المنحوت بمطاطها؛ ينتظر كل ذلك مدَّ المساء ليمحوه.

استغلق عليه ما شاهد...

أيعنيه هذا ليعرف لماذا؟ كان عليه أن يَنْفُض ذهنه من ذلك، ويمضي مُستمتعا بوقت فرغ باله فيه من أي التزامات أو واجبات؛ لكنه صحفي، وهو في بداية مشواره، ويتطلب منه هذان أن لا يجهل ما يجري، وعليه أن يسأل ويجِدُ الإجابة، وقد يكتب مُتطرِّقا إلى العناصر التي خلقت ما وقع، فمشى يمينا، وتطلع من جرف صخري إلى خليج؛ عثر به أخيرا على قوارب؛ تختلي ببعضها البعض متهادية بالأمواج، ولا أحدا من الصيادين موجود، فرجع سائرا إلى اليسار، فظهرت له مقدمات زوارق تصطف مشدودة بحبال إلى الأعماق؛ على رصيف صخري، ولا وجودا لأحد كذلك، فزاده هذا إلحاحا في السؤال عن السبب.

لم يتعجل فيسأل أحدا يظهر وهو في الشاطئ، ورجع بعد ساعة، وكان ما يألفه هو أن يجد دفتي باب دكان صغير مفتوحتين، وزبونا أو زبونين يشتريان خبزا أو حليبا أو شايا أو زبدة، أو غير هذا، وأباه يُنقَد بما يبيع، لأنه صاحب المحل؛ وهو حجرة استعاض بها لذلك، وكانت الساحة وما بين البيوت قفرين، وكان قد خرج في الصباح خافضا رأسه، فلم ينتبه إلى شيء آخر، وهو يراه في آن؛ سواء في بيتهم أو في البيوت الأخرى، وهو أن الحيطان القديمة المشققة؛ استُبدِلت بحيطان من آجور مضغوط بمخلوط الإسمنت والحصى، ومطلية بالأبيض، فتساءل:

– أفي مدة سنتين حدث تغير في الشاطئ وفي القرية؟

حاول أن يستفهم أباه عما لاحظه، أجابه قائلا:

– لم يعد الصيادون يُبكّرون، فلا أفتح أنا أيضا الحانوت إلا في الساعة العاشرة.

سأله مرة أخرى؛ يريد أن يعرف ما إذا كان هناك ما هو خاف عنه:

– أما من سبب لذلك؟
أجابه أبوه الذي أصبح في سن شيخوخة لا يهتم فيه بأمور يتكرر مثلها، ولا يتحمس لها؛ كابحا إياه عن الاستمرار في طرح الأسئلة:
– أيكون لنا فعل في ذلك أو نفع... قد أدري وأتفادى الكلام فيه.
لم يُضِف أيّ سؤال، وترك أباه الذي توجّه إلى باب محل البيع الداخلي؛ المؤدي إليه؛ ليُشرّع الدفتين الخشبيتين والمصفحتين بالقصدير عن سلعته.
كان يدل أذان صلاة العشاء، الذي سمعه بعد أن حل المساء يأتي من بين بنايات بعيدة عن الساحل، ورجوع المصلين من هناك؛ على بداية وقت من الليل يفرغ فيه الشاطئ والأزقة من المارة، ومن تأخر فإنه يُسرع خطواته، وهذا ما عهده كذلك، وكان قد استغرب ما لاحظه في النهار، فخرج في المساء لعله يكتشف لمن تكون تلك الآثار على الرمل الليلية؛ أهي لصيادين أم لآخرين، وإذا ما يكون هناك ما يجري، ووصلت إلى أذنيه أصوات لضحكات ولعب بالورق، وتهديدات مزاح، ونداءات بطلبات طعام وشاي، وضرب قنينات بعضها ببعض، أو بكؤوس زجاجية، فعرج، ومن باب ضيق مُوارب رأى جماعة الصيادين تقصف، فقال في نفسه مُستَنتجا: «فهذا إذن هو وكرهم الليلي»، وطرح سؤالا:
– هل يقومون بعد الشّبع واللهو إلى عمل ما؟
وتابع خطواته، وكان البحر في مده، وانحدر؛ تغوص قدماه في الرمال، وأطلق ناظريه في طول الشاطئ وفي البحر، ثم اتجه إلى صخرة واعتلاها، وطفق يتسمع ويتبين أجساما قد تتحرك، وطال زمن إلى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وكان الذي شاهده قاربان يظهران من بين الأمواج قريبا من الأفق، وصارا يدنوان وببطء من

الشاطئ، لم يظهر له عليهما غير القابضين بمقبضي المحركين يوجهانهما. كان الصوت الميكانيكي يأتي خافتا، ثم انقطع، ورأى سواعدا تجذف، ويغير الزورقان اتجاههما، ويبتعدان موازاة مع الرصيف البحري، ويرسوان، وتغادرهما رؤوس آدمية، وتتحرك؛ مُوارِية جذوعها بصخور الرصيف وتختفي.

أيتقدم ليعرف من هم؟

اقتحام عالم الليل يتطلب الحيطة والحذر، فلزم مكانه حتى سكن الرصيف، والتفت إلى منازل القرية، وارتأى أن يعود.

في الصباح قصد تلك الناحية، فشاهد آثار أقدام على الرمال؛ عدها فكانت عشرة أزواج من الوطء، ولا وجود للزوارق، قال:

– فهناك إذن أمور غريبة تحدث في الشاطئ؛ غيرت نظام حياة الصيادين، وباقي السكان، ومن مستوى معيشتهم.

وهو متيقن وواثق النفس بأن كل ليلة تمر إلا ويطلع على المزيد، ويكشف له عما يجهله، وفي ليل اليوم التالي لم يترك البيت إلا في الساعة الواحدة، وأول وجهة قصدها هي المقصف، فكان أن صادف خروج بعض الصيادين؛ لا ليأووا إلى منازلهم، وإنما هبطوا مُنحدر الشاطئ، وتفرقوا في الظلام؛ في عدة اتجاهات، وكان السّير يطول بهم إلى الخليج، وإلى الرصيف الصخري؛ لم يتبعهم وإنما ظل يمشي غير بعيد من المقصف وبين طريقين ضيقين، وفي إحدى اللحظات سمع قهقهة امرأة، فالتفت إلى مصدرها، فرأى فتاة إفريقية غامقة السحنة، وأحد الصيادين يضم خصرها إليه بقوة، وهي تقول له بالفرنسية، وبلُكنة إفريقية ممتلئة النطق، ومقعرة الصوت؛ وبضحك استمالي:

– Je suis fiancée

وهو يقول:

– من هو خاطبك؛ أهو أخطبوط عملاق يعيش في قلعة من مغاور أعماق البحر؛ يحيط جسدك بأذرعه الطيّعة واللينة، ويُدغدغه بمسّامه؟

وانفلتت منه وجرت إلى ما وراء كثيب رملي، وغابت بين أشجار غابة مُغطّاة بأتربة؛ راكمت على بعضها ممهدات ميكانيكية رُدوما من الأتربة والحجارة.

كانت تلك المرأة الإفريقية ومضة في ذهنه، كما تومض أسنانها الناصعة البياض في حُلكة وجهها وفي ظلمة الليل؛ عندما انفرجت شفتاها الغليظتان عن آخرهما لتُطلق تلك الضَّحكة بصوت إفريقي قوي، فتبعها، ولم يكن يرى منها في بعض من المسارب إلا يديها ترفعانهما بنشاط شبابي، وخصرها الفاتن يميل مع كل انعطاف منها وبرشاقة، ثم انمحت من أمام عينيه كشيء كان في الخيال، واستمر يسير بين صخرتين كبيرتين، وتل متراكم من التراب، ورفع رأسه إلى أعلى؛ إلى قنطرة كان قد أُنْتُهِي من بنائها، واصطدم بحائط عال مسقوف بصفائح الحديد، ورأى شاحنة يأكلها الصدأ، وآلة صانعة قديمة، فاستحضر من الماضي معمل إنتاج الفلين، فهذا مستودعه، وتلك آلة قلع سدادات من لحاء أشجار الفلين؛ هُجر منذ مدة طويلة، وصار في امتداد مشروع طريق واسع، فدفعت آلاتُ جرفٍ التربةَ والحجارة؛ لإنشاء قاعدة أفقية لإسفلت طريق ناعم وسلِس؛ إلى المنخفض، فلم يبق يظهر من معمل سدادات الفلين ذاك إلا جزءا من سطحه، فهبط رُكاما، أتربته وصخوره منهالة عند بقايا باب المستودع العريض، سمع بكاء رضيع، وهدهدةَ أم تحاول إسكاته بأن تُلقمه حلمة ثَديها ليرضع حليبها، أو تدس في فمه قطعة مما يؤكل، وكلاما متبادلا بين شابين عُتُلّين، فأطل فشاهد ما دهش له؛ أكثر من عشرة نفر من سود بلدان جنوب الصحراء، ينشرون على حبال

ستائر تعزل ما بين أفرشة يضطجعون عليها، وكل واحد منهم أو جماعة من فردين أو ثلاثة؛ يطبخ أكله على نار جمر ملتهب في حُفَر، فتراجع خطوتين بهدوء حتى لا يُلفت انتباههم، وغادر ذلك المنخفض المريع؛ الغارق في جذوع أشجار مجثة، وميتة، وفي مستودع مهددة أركانه بالسقوط، وسقف متهاوية أعمدته وصفائحه الحديدية غزاها الصدأ؛ تأوي إليه جماعة من أفارقة هاجروا سرا؛ لتحقيق حلم ما يزال يلوح لهم في أفق البحر.

أدرك أخيرا لمن تكون آثار الأقدام على رمال الشاطئ تلك؛ إنها لهؤلاء؛ ينقلهم الصيادون من البحر، ولا يمكن أن يُبحروا إليهم بالقوارب أكثر مما يستطيعون، ولا يبتعدون بحيث لا تظهر لهم علامات الشاطئ التي يسترشدون بها في عودتهم، فلا بد من أن يعرف المزيد لتكتمل عناصر الحكاية.

في الغد استأجر قاربا بمحرك بنزين، وفي الساعة العاشرة ليلا أبحر به؛ مُبتعدا عن خط عودة قوارب الصيادين، وتوقف، وجلس في قعر القارب مُسنِدا ظهره على جانبه؛ بحيث لا يُرى، وظل يطل برأسه ومن بين قمم الأمواج مُراقبا أرجاء البحر؛ ناظرا من وقت لآخر إلى ساعته، ولم يَمُلّ انتظار ما قد يحدث، وانتصف الليل، وبعده بعشرين دقيقة ظهر مركب صيد من مراكب الموانئ آتيا من الأفق، بضوء خافت؛ معلقٌ مصباحُه على صار حديدي قصير، وصار يقترب ويتوقف، وتتجه إليه ثلاثة قوارب من قوارب الصيادين؛ قادمة من شاطئ القرية، وينزل إليها من المركب أفراد؛ الواحد تلو الآخر، وتكر بهم الزوارق إلى الشاطئ، لتطأ أقدامهم على الرمال، ولا يمحو آثارها إلا مد مياه الغد، وتكون دليلا ماديا على أقدام مهاجرة من بلدان ذوي السحنة السوداء.

عاد بمهل، وربط القارب بعمود بيت صاحبه، ودخل إلى حجرته، وجلس إلى مكتبه؛ لم ينتظر حتى الغد ليخُط على الورق، وتدفق مداد قلمه؛ لا ليكتب عن سفينة تُبحر من البحار الجنوبية بمهاجرين من بلدان إفريقية، ومركب صيد يُساحِل بهم، وقوارب صيادين تنقلهم من عُرض البحر إلى البر، مقابل مبالغ من المال، والذي تصدى له هو معاناة أولئك المهاجرين، وهم يلتجئون إلى بنايات مهجورة، مفتقرة إلى مستلزمات الحياة اليومية؛ وإقامة مآو مؤقتة لهم قد تُخفف من ذلك.

النَّبشُ عن عِظام

بُسِطت فُرُش بتوازٍ مع جُدران الحجرة الأربعة؛ هي في الأصل لُحُف منسوجة على نوْل من دعّامات خشبية، وذراع لفّ الخِرقة مُتحرك؛ بخيوط صوف مصبوغة بألوان مختلفة بالنِّيلة؛ تاركة مستطيل وجه حصير يظهر؛ من سيقان نبات السَّمّار المجففة؛ عليه مائدة خشبية قصيرة الأرجل، وجُعِلت على الحائط وسائد مُوزّعة؛ صوفية هي كذلك؛ تبرز منها أزواج خيوط تنتهي أطرافها بأقراص صغيرة ودقيقة؛ بلون معدني برّاق.

كانت تجلس على جزء من الفراش امرأة في سن ما فوق الستين، وهي التي نفّشت الصوف، وغزلته، وحاكت به الأنسجة؛ تغطي رأسها بوِشاح فاتح الألوان، وتُرخي على كتفيها وجذعها وطرفيها السفليين إزارا أبيض وأزرق؛ تُمسك براحتيها مِسبحة؛ تُمرّر حباتِها الاصطناعية؛ وشفتاها تتحركان بكلمات التسبيح والتحميد والتّأليه والتكبير؛ تنظُر في اتجاه واحد فقط؛ في ابنها ذي التاسعة عشرة؛ وتسمع ما ينطق به؛ يَقْعُد هو كذلك الأُرْبُعَاء؛ مُتوكّئا بذراعيه على المائدة؛ يقرأ في كتاب، ويخُط مُردِّدا كلماتِ ملخّص فقَرات في تاريخ معركة مُقاوَمة؛ على كُرّاسة: «بعد أن حلَّ الجنرال الفرنسي (أوجين رونو) بفاس؛ في 30 مارس 1912م، ودخل بتجريدة عسكرية إلى القصر؛ ووقّع مع سلطان الدولة الشريفية المولى (عبد الحفيظ) على عقد؛ تم بموجبه جعل المغرب تحت حماية فرنسا، ثارت قبائل الجبل بعد ذلك بعقد من الزمن؛ كبَّدتْ الفُرقَ العسكرية الفرنسية خسائر في العتاد والأرواح، ودفن الفرنسيون قتلاهم وهم في خِضمّ المعركة...».

كان أذناها يلتقطان كل كلمة؛ تتالى في مُنحنى مُتوازٍ مع حبات السّبحة ولهْجِها هي بما يُعظم الخالق تسبيحا به، وعندما وصل ابنها في تلخيصه ذاك، وهو ينكبّ على تقييده؛ إلى الجملة الأخيرة؛ فيكون قد اكتمل المعنى أو كاد؛ توقفت سبّابتها عن تحريك الحبّات، واتسعت عيناها؛ كأنهما كانتا غائبتين، وحدّقت في وجهه؛ باحثةً ولأول مرة عن علامات جديدة تظهر مع نموه من سن لآخر، وركّزت انتباهها في آخر ما لخّصه؛ مُحكما سبابته وإبهامه برأس القلم؛ بادئا بالكتابة، وبسرعة؛ حتى لا تنفلت منه معاني الجمل والكلمات، وسألته مُحقّقة أكثر:

– أوَ قلتَ يا ولدي دَفَن أولئك الفرنسيين قتلاهم؟

أجاب دون أن يرفع رأسه وينظر إليها:

– نعم.

كانت ستتفوه بسؤال آخر، أو بقول، لكنها أدركت أن عليها أن تدع ابنها يستمر في قراءة الفصل من الكتاب، وفي تلخيص فقراته؛ ليفهم درسه جيدا، وليحفظ في ذاكرته المعلومات الضرورية؛ ليتطرق إليها في موضوع يُطرح للامتحان، وصارت تُنقب عن بقايا أحداث قديمة ترسبت في ذاكرتها، وتُذردر عنها أتربة طمرتها بها سنون عمر طويلة، وأهالت عليها النسيان؛ فأول ما تذكرته من ذلك الزمان ثلجَ شتاء، وكيف بدأ يذوب بحرارة شمس ربيع من قمم تلال وجبال الأطلس، وسفوحها، فتنبت في تربة الأرض المروية بالماء المتدفق، وبكثافة جذورٌ تطول أغصانُها وتُورق، وتمتد بساطا بأشكال من البراعم والزهور، وتُضيء المتضرسَ بالجبال شمسٌ مشرقة، وتستيقظ طبيعة تلك البيئة الغنية في أحد الصّباحات، فكانت طفلةٌ، ولابتسامتها الدائمة، ولاستجاباتها السريعة، ولحذقها، ولخفة جسدها، ولرقة قلبها؛ تنجذب لها النفوس، فيظل اسمها (فَاطِنَة)؛

وكانت بحق فَطِنة؛ ينادي به عليها كل من الجيران يصادفها في الطريق الهابط، أو في مسارب مسارح الماشية، أو في السوق؛ يصطحبها أبوها إليه، لأنها بِكره؛ المعمم والمُتجلبِب بالبياض، وذي اللحية الخفيفة، والوضاءة، والقلبِ السمح؛ يُتاجر في الأسواق الأسبوعية بالحبوب وجِزز الصوف؛ عُدته حقيبة يُطوى عنُقُها، ومِخيَط، وخيوط من قُنّب، وأخياش، ومِكيال قصديري؛ قد نهضت في ذلك الوقت؛ على نور تدفقت حُزمته إلى الداخل عبر كُوة في الجدار؛ كان أول عهدها به في ذلك العام؛ بث نشاطا في جسدها، وأحست بدفء في الجو، وأطلّت من الباب على الساحة المحاطة بحائط قصير؛ سرحت فيها الدِّيكة والدجاجات والبِطاط والأرانب، وبصبص فيها كلب وَفِيّ؛ حارس قطيع الشياه؛ مُبتسمة وفرِحة تلك الطفلة؛ ناظرة في الأرجاء القريبة، وإلى سماء صافية الزرقة؛ تملؤها رفرفةُ أجنحة الطيور، وتغاريدُ العصافير.

غمست قطعةَ فطير في زبدة الضُّروع مُذابة، ودارت وهي تمضغها إلى وراء الدار، وأخرجت من الزريبة الشائكة خرفانا ونعاجا، وساقتها، يتقدمها النابح؛ ترسل نظرها بعيدا؛ تكون مطمئنة إذا لم يكن هناك ذلك الجالس في أغلب الأوقات أمام كوخه الحجري؛ يُخيفها شعره الأشيب المتدلي والمشعث؛ من تحت عِمامة؛ أطبق بثوبها الغامق على رأسه، وعيناه الحمراوان فالتتان من محجريهما ببريق، كبِليتيْن من زجاج، وتجاعيد برية قوية؛ يغزوها زغب كالإبر؛ وصوته الغليظ؛ كان لا يبدل ثوبا يُشمّره بحزام من كتّان بآخر؛ ذلك المسن لا يتركها تستمر في ضبط سير القطيع، وكان يسمع كثيرا المناداة باسمها، فينهض من العتبة الصخرية المظللة بشجرة، ويمسك بطرف كُمها مُشيرا بعصاه المفرّعة في سفوح جبال الأطلس، ويقول لها مُترنما، وما يُفزعها من تلك المراعي:

– عُشب هي تلك الأرض الآن يا (فاطنة)؛ قبل زمننا هذا كان جوها يختنق برائحة بارود البنادق، وأزير الرصاص، وصيحات بألم اختراق الخرطوش، وأجساد تتهاوى على التراب؛ تنزف دماء يا (فاطنة)؛ لافظة أنفاسها الأخيرة. إلى ذلك التلّ ترتعين يا (فاطنة)؛ تسرح شياهُك على هياكلهم أولئك النصارى... عودي يا (فَاطْنة)... لا تُعرجي على ذلك المكان يا (فَاطْنة)، فما زلت أرى وجوههم ورؤوسهم مُلطّخة بالدماء وهم يُدفنون، واذهبي في اتجاه آخر يا (فاطنة).

ويمضي يهذِر، وهي تحاول الانفلات من قبضة كفه الصّلبة.

لم تدر الآن لماذا لم تطرأ عليها آنذاك فكرة إخبار أبيها الحاج بذلك...

والذي كان في مثل عمرها وهو راعي أغنام، ويقضي وقته في صنع مزامير من أنابيب قصب الوادي، وكثيرا ما التقيا في التبكير بالقطيعين، أو بالعودة منهما عند غروب الشمس، ويجتمعان إلى بعضهما البعض عندما يظهر ذئب على قمة ربوة؛ رافعا خيشومه يعوي، فيهددانه بعصوايهِما، ويتقدمان في اتجاهه ببضع خطوات؛ يطردانه إلى ما راء التلال، وليتقهقر بين أشجار الغابة، فقد يتسلل لينقض على حُملان تأخرت، أو شياه زاغت؛ هو من أخبر أباها بذلك، فسألها والدها:

– أوَ صحيح يروّعك ذلك الشيخ؛ بمدافن موتى الفرنسيين؟

فتجيبه قائلة بتلعثُم خافضة بصرها، ومحركة إحدى قدميها:

– نعم... إنه يُحذرنا بالرعي في تلك الناحية...

قال بهدوء:

– لا شيئا يشغل (موحى الزّياني) غير الكلام فيما مضى من أحداث... كان ممن قاوم تقدم فُرق فرنسا العسكرية إلى الجبل.

كان بصرا (فاطنة) قد رأيا هناك في ذلك المنخفض شياه صانع المزامير، وقد انتشرت على العشب؛ الذي غطى الأرض، فصاحت على غنمها تستحثها، ولوّح هو عليها بيده بسعادة، والتقط حصاة ألقمها أوراق دَوْم مضفورة، وأدار ثقلها بخيط مفتول من الدّوم نفسه، وتركها تمرق مُصفّرة بالريح؛ إلى طائر مُتيقّظ؛ طار بعيدا، وردت هي رافعة يدها، وهاشة بعصاها على خروف حمسته شساعة الكلأ.

وكان قد انقضى نهار ذلك اليوم، فلَمَّ كل منهما شياهه، ووجهها إلى طريق العودة، وكان قرص الشمس قد غَرَب، وبدأ الليل يزحف على بيوت الدّوّار، وعلى قمم وسفوح جبال الأطلس، وتخيلت (فاطنة) الموتى الفرنسيين، ودفيني تلك الجهة التي ترعى فيها ذوات أصواف؛ ينتظر القرويون قدوم فصل لِقَطعها، وكانت تجري يمينا وشمالا لتُحافظ على انضمام الغنم إلى بعضها البعض، وتنظر إلى الوراء؛ إلى المساحات التي أظلمت؛ ما إذا كان هناك ذئب يتعقب القطيع، وكانت تسمع من وقت لآخر همهمات الرّاعي، وهو يجدّ في مثل ما تفعل هي، والذي شد بصريها إليه في الظلام هو ثلاثة أشباح؛ يستنيرون سراجا مُلحّما بصفائح قصديرية، وله وجوه أربعة من زجاج؛ يشع منها نور شمعة؛ يحمله أحدهم؛ يسيرون بخطى خفيفة؛ عرفت من مشية أحدهم (مُوحى الزّياني)؛ يتقدم اثنين، ومن الجلباب الصوفي الثقيل (شيخ) الدوار، والآخر فرنسي يرتدي لباسا أسود اللون، وتبرق صفيحة حذائه الجلدي الململمع تحت ضوء المصباح، فنادت بصوت خافت على صانع المزامير، فالتحق بها، وقالت له:

– أوَ رأيت... (موحى الزياني) مع اثنين؟

نظر حيث أشارت، وقال:

– نعم.

تساءلت بفِطنة:
- أهم ذاهبون إلى موتى النصارى؟
قال الراعي:
- لنوصل القطيعين إلى الزريبتين، ونعود لنعرف ما يفعلون في هذا الوقت من الليل.

ورجعا، واستهديا إليهم؛ أولئك الثلاثة بضوء السراج، ولما دنوا منهم اختبئا بأجمة، ورأيا (مُوحى الزّياني) يحفر بمعول، والفرنسي يجرف التربة بمجرفة؛ حتى تعمق الحفر، فنزل ذو اللباس الأسود والحذاء المتقن التصميم؛ على ركبته اليمنى، وأخرج جمجمة إنسان، ورسم على صدره وجبهته إشارة الصليب، وصار كلما أدخل يديه أخرج عظاما.

ففزعت (فاطنة) والراعي، فوليا هاربين؛ يجريان؛ لم يسبق لهما أن عدوا وقلباهما يدقان؛ يُزلزلان جسديهما الصغيرين، وتعثَّرا غير ما مرة بجذوع قصيرة، لم ينبسا إلى بعضهما البعض ببِنت شفة، واتجه كل واحد منهما إلى بيته؛ مُتكتما على ما شاهد.

في سكون ليل ذلك اليوم، وفي الهدوء الذي شمل البيت، رفعت (فاطنة) وهي مُكوّمة في غطاء صوفي مخطط؛ عينيها إلى فتحة الجدار؛ لترى جزءا من القمر يبدو، ثم يختفي، ويُداهم خيالَها وجه (موحى الزّياني) الجبلي؛ الغليظ التجاعيد، والجمجمة التي نَبَش عنها، فكان نومها متقطعا حتى الفجر. أذهب عنها التوجس وقعُ أظلاف قطيع غنم؛ يُبكر به صاحبه إلى السوق، وثغاءٌ مكتوم، ولما أضاءت الشمس المشرقة الخارج؛ نهضت، وبدأت تستعد لرعي غنمها، وكان ما يُسيطر على بالها هو (موحى الزياني)، أسيمضي في تحذيرها من ذلك المرعى مرات ومرات؟ وسواء سيكون الآن جالسا كالعادة، أو لا يكون؛ ستُغير طريقها، وهي سائرة مرتاحة إلى

حد ما؛ وفي حُسبانها أنها نحّت بنفسها عن طريق النابش عن العظام، لكن ذلك لم ينجح، فقد شاهدته، وقد استيقظ في غير الوقت؛ يسير ويتوقف عندما بدت له التلال والربوات والأجراف الصخرية، وصار ينقل عينيه في امتداداتها، وفي عُلوها، كأنه يُعين أحد القبور لنبشه، ثم خطا راجعا، ولما رآى (فاطنة) أسرع وأحكم قبضته على رُسغِها، وقال مُنغِّما:

– (فاطنة)... يا (فاطنة)... رحل أحياؤهم يا (فاطنة)؛ أزحفوا على الجبل ليعودوا يا (فاطنة)؟ وعظام موتاهم يا (فاطنة)... سترحل هي أيضا يا (فاطنة).

في المرات السابقة كانت لا تُعير أي اهتمام لما يتفوّه به، أو قد تستهين به، لكن وقد شاهدته وهو يحفر عن هذه العظام، التي يكون قد استوفى بها كلامه الأخير، فإنها أحست بخوف، وامتلأ ذهنها بصور كثيرة تُروِّعها، ونظرت إليه نظرة واحدة فقط؛ هو الذي يحفر عن عظام موتى النصارى، وعندما أخلى سبيلها؛ تبِعت قطيعها، والتقت بالراعي، وكان أول ما قال هو أنه سمع في الليلة الفائتة خاله يقول لأبيه؛ أن رجلا فرنسيا؛ يتدلى من عنقه صليب مُذهّب؛ مُكتنز الوجه؛ مُشبّع الجلد؛ قدِم مُكلّفا من طرف دولته بالنبش هنا عن عظام من قضوا في معركة؛ جرت بين مقاومي الجبل والجيش الفرنسي الزاحف والمغير والمخطط للاستيلاء، وأن شيخ الدّوّار هو من دلّه على من بقي على قيد الحياة؛ من الذين كانوا من المقاومين المحليين، وهو (مُوحى الزَّياني)، ويعرف أين طُمرت الجثث، وأن ما ينبشون عنه يراكمونه في جانب من ذلك المبنى القديم المسقوف بالقرميد الأحمر، وهو أحد مخلفات المحتلين، والموصد دائما؛ يحيط به سور تُغطيه نباتات، ويغزو بابه الحديدي الصدأ، لأنه لم يعُد مطروقا منذ مدة طويلة.

تذكرت الآن أن ما حكى لها الراعي دفعها إلى التفكير في شيء؛ مُستنفدة شجاعتها، فقالت وقد غير الخوف من علامات وجهها الصغير:

– أنذهب إلى هناك ونرى عظام النصارى؟

قال بإقدام الصّغار:

– بعد غروب الشمس... حتى لا يرانا أحد.

ومشيا في المسالك المخترقة للمراعي، وتفرقت خِرفانهم وخَرائِفُهم في خُضرة الكلأ، ويذهبان من حين لآخر إلى تلك الحفرة –وكان قد ازداد عددها؛ وصل إلى ثلاث نُبشت في الليلة السابقة– التي أُفرِغت من العظام، وأطلا في قعرها بتردد؛ كأنهما سيُباغتان بعظمة باقية أفلتت من الجرف؛ وبعد أن ساقا قطيعيهما في المساء إلى الزريبتين لقي بعضهما البعض، وقصدا تلك البناية المهجورة، لكن وجدا سورها يعلو عن قامتهما؛ قال الراعي بشجاعة:

– سأنحني وتسلقي أنت ظهري.

وقد فعل، فوضعت (فاطنة) رجليها الحافيتين على ظهره المقوس، وإن كان يتحرك بثقلها لا يثبُت؛ إلا أنها استطاعت أن تُطل، وذقنها ينجره حجر السور؛ أن ترى ركاما من الجماجم، وعظام الهياكل الأخرى، ونزلت بسرعة حاثة إياه على ترك المكان قائلة:

– إنه لشيء مخيف... هناك الكثير من عظام النصارى.

وأسرعا بمغادرة المكان؛ يُخفيهما الظلام.

بعد أيام، وفي أحد الأصباح، وهما ينظران من بعيد إلى ذلك البناء المنعزل في أذهان القرويين، ولا يدخل في اهتمام هؤلاء اليومي؛ رأيا شاحنة داكنة اللون تدخله، ثم تغادره، وتسير في الطريق الضيق بين المزارع، والأراضي الفارغة؛ يرمي بها إلى ذلك الطريق المعبد الذي

يقال أنه يذهب بالمسافر بعيدا... بعيدا؛ إلى أماكن تهجم عليها أمواج بحر لا يُحدّ في خيال (فاطنة).

انتظرت (فاطنة) الأم حتى طوى ابنها كتابه وكراسته، ورفع رأسه أخيرا مُتنهدا بعمق؛ آخذا نفسا عميقا؛ وفاركا عينيه المتعبتين بالتحديق في الورق؛ حينئذ قالت:

– وأنا طفلة أرعى الغنم في سفوح وأودية جبال الأطلس؛ شاهدت عظام قتلى تلك المعركة التي لخصت حدثها التاريخي؛ تُنبش عنها قبور ترابية، وتُركم في بناء مهجور، وتُحمل في شاحنة إلى وجهة مجهولة.

قال:

– سآتيك بخبرها غدا أمي حتى تعرفين نهاية حكايتها.

في الغد؛ ولما عاد من الفصل الدراسي؛ كان أول ما تحدث به إلى والدته هو العظام، حيث قال بأنه سأل عنها أستاذه المحاضر في التاريخ؛ فأجاب بأنها عظام من قضوا في تلك المعركة فعلا، ورجح أنها لم تُشحن بمركب إلى الشمال، وأُقبرت في مدفِن النصارى بإحدى مدن الساحل.

يوميات قَتِيلين

لم يكن يعرف غير ما كانت أمه تقول له بافتخار، وهو وحيدها؛ من وقت لآخر؛ بأن أباه كان مُدرسا لمادة التاريخ؛ في فصول المرحلة الإعدادية، فتعلو وَجهَها سعادةٌ بأيام خلت، وبأسف بعد ذلك، فتدمع عيناها؛ خصوصا بعد أن تجاوز عمرها العقد الخامس بسنتين، وأنه فقد حياته في حادث؛ كانت قد زاغت به سيارته في أحد المنعرجات؛ كان هذا ما أخبرها به قريبان لها؛ حضرا في الوقت الذي كان فيه عون مصلحة حوادث السير يُحرر تقريرا مُفصّلا بالحادثة، ولم تُشك إطلاقا في السبب، واحتفظت به في ذاكرتها؛ تلتجئ إليه كلما سُئلت لملأ مطبوع إداري؛ أو سألتها إحدى النساء، فتُجيب بأنها أرملة، وأن زوجها انقلبت به السيارة في طريق المنعطفات، فمات في الحين، وتُضيف ناظرة إلى ابنها بعطف وبأسى؛ قائلة: «ولم تكن تبلغ من العمر يا ولدي في ذلك الزمان إلا ست سنوات».

لم يتفاجأ هو بالموت؛ الذي وقع كصاعقة؛ كما تفاجأت هي، ولم يُصدم بخبره كما صُدِمت هي، ولم يَنُحْ حتى تألم من جاء للتشييع وللتعزية؛ كما ناحت هي؛ لأنه كان ما يزال طفلا؛ لا يفهم ما يحدث في دنيا الناس، فقد تصرفه أشياء أخرى؛ في مستوى عقل عمره، ولا تُناسب من هو فوق سنواته. لم تكن تهتم إلا بما هي مُتحمسة له، وهو شغل البيت اليومي؛ ككَنْس الحجرات الثلاث، والمطبخ، وفناء ضيق، وتدمير خيوط نسيج العناكب من الأركان، وطبخ الطعام، وتصبين الملابس، واللُّحف، والأفرشة المبطّنة، والاعتناء بابنها بعطف وحنان، وقد غاب وللأبد من كان سندا؛ في تحقيق –بالكد في العمل– ما يُوفّر مُتطلبات أفراد الأسرة، فأُسنِد إليها وحدها هي فقط اتخاذ قرارات؛ يُشترط أن تكون صائبة في حياتها هي ويتيم

الأب، وطال تفكيرها فيها؛ بعد أن تقاضت أول مبلغ معاش، واستفادت من مبلغ المؤمن به عن حادثة السير؛ كان الأول قليلا لا يكفي؛ ذلك أنه احتُسِب بسبع سنوات عمل المرحوم لا أكثر، والثاني كان قد يسّر لها بأن ترحل بابنها من تلك القرية النائية والمنعزلة؛ إلى إحدى مدن الساحل؛ المُوفِّرة إلى حد ما لفرص الشغل؛ اشترت به بيتا سفليا بحجرتين، ومطبخ؛ في حي قديم، واشتغلت مُنظفة بأحد الفنادق الراقية المُطلّة على شاطئ البحر؛ لأنها كانت عالية الهيكل؛ صارمة الملامح بأثر الفاجعة؛ حاذقة؛ حازمة؛ دائمة الحركة؛ لا ترضى لها نفسها الأبية بأن تُستضعف من طرف أي أحد، أو تمد يدها إلى أي أحد.

حملت الأثاث بحرص؛ كأنها تشتاق إليه إلى البيت الجديد؛ إلا الكتب التي كان زوجها يُطالع فيها، ويستزيد منها لتهييء الدروس؛ وكراسات مُلخصات؛ وأوراق تقْييدات، وملفات مدنية وإدارية؛ فقد نقلتها إلى بيت ما يزال قائما في البادية؛ على قطعة أرض صغيرة ورثها عن أبيه؛ تُبَوّر، أو يتوقف حرثها على موسم مطير، وطمرتها هناك في حجرة وحيدة بباب خشبي سَمَرَتْه، وتركتها؛ تُنسيها عنها مشاغلها بالمدينة؛ والسعي اليومي الكؤود لتوفير لُقمة العيش، ولم تتفقدها أبدا، فالأهم من هذا وذاك هو أن ينجح ابنها في جميع أقسام التعليم، ويحصل على شهادة جامعية عليا، فأفرغت ذهنها من أي مما يُلهيها عن ذلك، كما لم تعط لذلك البيت وتلك الأرض أهمية؛ في حديثها عنهما في بعض الأحيان إلى ابنها، لذلك كان يجهل ماذا يعنيه منهما بالضبط.

إلا أن كان ذلك اليوم الذي سافر فيه هو وليست هي؛ إلى ذلك البيت المنسي؛ لاهتمامات مُستجدة، وبرغبة في أشياء قديمة؛ دفعته إليه دفعا، وكان قد بلغ من العمر أكثر من ثلاثة عقود، لتقع يداه

هناك على ما يمده بغير ما كررت أمه حكيه عليه، ولتُدرك هي أنها كانت جاهلة بما تخلت عنه، وشعرت بزوجها وهو يُبعث من أوراقه، ليُطلعهما على الحقيقة الذي قلبت ما نُقل إليها في حينه، وعاشت أعواما تُحدّث نفسها به، وبغيرها لوعة وإحباطا، وبكت من جديد بحُرقة قاتلة لم تعهدها...

كان لا يُؤخره أيّ شأن عن العودة إلى البيت؛ بعد أن يُغادر مقر الشركة التي يعمل بها مُبرمجا معلوماتيا، ولم يكن من الكثيرين الذين تجذبُهُم لقاءات المقاهي، والأندية الليلية الدافئة، وتشتهي بطونهم الفارغة في ذلك الوقت أطباق الغير المنزلية المعتادة، ولا يشغله وهو في سكون حجرته أي شيء آخر غير الحاسوب، فإما يُنجِز به عملا مُستعجلا؛ كُلف به، أو يتصفح المجلات الرقمية، ويطلع على جديد المواقع الإلكترونية، فما أُعجِب به في إحدى المرات، ثم استهواه، وسعدت نفسه به، هو تلك الأشياء القديمة؛ أصيلة الصنع، والتي يعود تاريخها إلى أكثر من قرن، ومنها تُحَف لم يبق منها إلا نسخا واحدة، وتُعطي فكرة عن زمن زاهر، وفنية بائدة، وأُبهة زائلة، وكلاسيكية تحن إليها النفوس؛ تُعرض للبيع لجامعي التحف والأشياء القديمة النادرة، كمجلداتٍ بهية الطبعات، وكتبٍ بحروف حبر لا يمحى؛ تشربها الورق، وأقلام حبر مُذهبة، ومحابر زجاجية؛ بأغطية نحاسية براقة، ومِقلمات خشبية؛ كانت تُحفز على جدية التعلم، وساعات حائط رائعة التصاميم؛ بعقارب كانت تجعل إنسان القرن الماضي دقيقا في مواعيده، وساعات جيب فضية، وساعات المعصم، ومحفظات، وحافظات جلدية، وفوانيس، وطال تحديقه فيها، وأمعن النظر في تفاصيلها، وقال: «قد لا تخلو البيوت القديمة من مثل هذا»، وذهب به تفكيره هذا إلى ما كانت أمه تنقله إليه عن أبيه، فقال: «كان أبي رجل تعليم، فهو دَرَس في الجامعة، فتثقّف، فأين

هي أقلامه، والمحابر، وحافظته، ومحفظته، ومفكرته، وكراساته، وساعته اليدوية، وكتبه ومجلداته؟».

وفي صباح يوم عطلة الأسبوع، من أولى أيام الصيف؛ صفت فيه السماء مما يحجب شمسا مشرقة؛ بأن تشع عبر النافذة؛ في داخل الحجرة، وتغمره وأمَّه، وهما جالسان إلى مائدة الفطور، فكان أن أسعد نفسيهما ذلك الجو الرّائق، وكان فرصة مناسبة؛ تتفتّح له الخواطر، فتتدفق الكلمات من الأفواه؛ دون ضيق، فذكّرها قائلا:

– كثيرة هي المرات حفّزتِني بالتدريس الذي كان يشتغل به أبي.

قالت:

– نعم كان أبوك يقرأ كثيرا، ويبحث في الكتب، ويُحضّر الدروس لتلاميذه في أوقات كثيرة.

فسألها:

– فأين هي الكتب، وكراسات التحاضير، ومُفكّراته، ومحفظته، وأقلامه، ومحابره؟

سكتت فترة من الزمن، ثم قالت:

– جميع هذا الذي سألت عنه؛ هو في حجرة في بيت بأرض موروثة عن جدك؛ أوراق ملكيتها محفوظة.

وقامت، وفتحت دفتي خزانة، وأخرجت صُرّة فكّت عُقدتها، وأبرزت منها أوراق توثيق وتقييد قديمة.

قال لها بتأهب:

– سأذهب إلى هناك، لأرى الأشياء التي كانت لأبي.

وفي الغد سافر بسيارته إلى بيت مبني بالحجارة والطين؛ من بين تلك البيوت المتفرقة في أراضي البادية، وجال ببصره في إحداها ليست بواسعة، وفي سور حجري وطئ؛ حَرّر بابا فيه من قُفل قديم، وخطا إلى أخشاب باب فكّها من مسامير، ودفعها، فَفَسحت له

العتبة، فدخل، ورائحة أشياء من الماضي هي ما اشتم أنفُه، وتقدّم بادئا بآخر ما وُضع من ذلك الرّكام، وشرع بفرزها، فهي كتب مجلدة، وأخرى بدفتي غلاف ورقي، ومجلات علمية وأدبية أكاديمية، وخرائط، وأدوات كتابة وتسطير، ومسودات، وتصفحت يداه مُفكِّرة؛ قليلة الأوراق، وصغيرة الحجم، وكان أن قرأ أحدَ تواريخ وقائع يوم، فقال: «هذه يوميات؛ كان أبي يُدون البعض مما حدث في يومه»؛ تأبطها بحنين، وبشوق إلى قراءة ما كان يخطه أبوه بأسلوبه، وأتى من صندوق السيارة بكرسي يُطْوى؛ إلى تحت أغصان شجرة، وجلس عليه؛ يحيط به سكون البادية؛ إلا من تغاريد العصافير، وقرأ على الصفحة الأولى يوما من شهر؛ من العقد الثامن؛ من القرن الماضي؛ هاله عنوانه، وهو: جريمة قتل، فلم يستمر، ومرر الأوراق إلى تاريخ يوم آخر، فقرأ عنوانا هو: القاتلان؛ إلى آخر صفحة من ذلك اليوم، وليس بعدها إلا دفة اليوميات الثانية، فلم يسجل والده إلا حدثي يومين فقط، فاستغرب، وفكر، ثم قال: «يومان هما أخطر ما مر به»، وبعد تفكير ممعن قال: «لكن عن أي جريمة، وعن أي قاتلين يتكلم؟ فوالدي كان رجل معارف، ويُدرّس، فلا مسلكا يؤدي به إلى أن يكون قد شاهد جريمة»، وشرع يقرأ باهتمام بالغ: «لم تطرأ علي الفكرة إطلاقا؛ لا في سنوات تعليمي الابتدائي، ولا الإعدادي، ولا الثانوي، ولا الجامعي؛ أن أسجل بعضا من أحداث أيامي، ولما شاهدت بعيني ما وقع؛ وجدتني أكتب عنه، فلفظاعته قد تلومُني الكلمة التي بها أسرد وأصف، فالحقيقة التي لا ريب فيها؛ هو أنني ما إن عُيّنت أستاذا في إحدى الإعداديات التعليمية؛ توجد في مركز قروي؛ حتى قررت أن أزور أقرب آثار مدينة رومانية؛ كانت لا تبعد إلا بخمسة كيلومترات؛ تقع على الضفة اليسرى لواد جار ماؤه؛ لأسير تحت أقواس أبوابها الرئيسة، واجتاز عتبات بناياتها،

وأتمشى على حجارة أرصفتها، وساحاتها العمومية، وأيضا إذا ما كانت بعثة تنقيبية تحفر عن حيطانها؛ أرى كيف يقوم خبراؤها بذلك، وأكتب مقالات عن آثارها وتاريخها، وأُنظم إليها رحلة دراسية لطلبتي، ليلمسوا الحضارة المادية القديمة، وأواظب على قضاء وقت في قراءة كتاب بين أطلالها؛ التي يسودها سكون وهدوء؛ في أغلب أوقات اليوم والسنة، وكان قد شدّني إليه في هذا اليوم موضوع كتاب في التاريخ، وأنا جالس بين الجُدر القديمة المهدمة، وسافر بي أسلوبه الشيق في تاريخ أحد الشعوب السالفة، يصف به المؤلف حياته اليومية بإسهاب؛ كان سبَّاقا ذلك الشعب إلى اختراع أشياء كثيرة؛ دفعته إليها شروط الاستقرار، وليتطور، وتكون له الغلبة، فيسود إلى حين من الزمن، فلم أنتبه إلى الوقت وهو يمر، ولم يكن أي شيء يُضايقني؛ ذلك أن جو بداية الصيف كان مُلائما، فلم أغادر المدينة الأثرية، وقد غربت الشمس، وزحفت الظلمة، وسكنت الدنيا، ووددت أن أبقى في المكان بعض الوقت، لأحيا ليل آثار المدينة، ليتفتق ذهني عن أفكار جديدة، وكنت قد رأيت هناك على ضفة النهر ضوءا يسير لامعا بين الأشجار، وسمعت صوت تجذيف في الماء، فأدركت أن هناك من يقترب من الآثار راكبا قاربا، ثم رأيت ثلاثة أشباح تصعد السفح؛ على نور يُضيء من مصباح يدوي يوجهه أحدها أمامها، وتتوجه إلى آثار خزان ماء وبئر مردوم؛ أحيطت بأسلاك شائكة؛ إما لأنها مُعينة للحفر والتنقيب فيها، أو للحفاظ على فسيفساء أرضيتها من وطآت الزوار، فتساءلت قائلا: «من هم هؤلاء، ولأي غرض هم هنا في هذا الوقت من الليل؟»، فتواريت خلف جدار، ودنوا، ومروا أمام عيني فعرفتهم واحدا واحدا؛ أحدهم حارس الموقع الأثري، وآخر سائق الشاحنة، الذي ينقل غِلل الحقول إلى المدن، والآخر الحفار الذي يزيل طبقة التراب السطحية،

ليُمهّد ضرب المنقبين الأثريين في التربة بالـمَاَلِج، وتذريتها بالفُرش عن اللُّقْيات، وما إن وصلوا إلى بقعة من الأرض حتى شرعوا في الحفر، ولاحظت أن تربتها طيّعة تحت معاولهم ومجارفهم، مما يعني أنها حُفرت من قبل، وما إن عُثر على ذلك الشيء حتى أهيل عليه التراب إلى وقت آخر، وحاولت أن أخطو مُقتربا حتى أرى ما يحفرون عليه، فما ظهر لي تحت الضوء صندوق يلمع معدنه؛ مملوء بحُلي ونقود ذهبية رومانية؛ فهو كنز نبشوا عنه، وشاهدت السائق يمد بأوراق نقدية إلى الآخرين؛ إلا أن حفار الآثار جر بالمعول الصندوق الذي ما يزال مُتترّبا إلى ما بين قدميه رافضا المقابل، فدفع السائق بالحارس بعيدا، ودار بينهما كلام، ثم رجعا وحاولا الضغط على الحفار على أن يقبل بالمبلغ؛ إلا أنه رفض، فما كان من السائق إلى أن رفع المجرفة وصار ينهال بها على رأس الحفار، حتى سقط هذا دون حركة؛ ودمه ينزف، ففزعت وجريت مُبتعدا؛ إلا أنني تعثرت، فأحدثت رجلاي صوتا سمعه المتواطئان، فالتفتُّ فرأيت الحارس يتبعني ليعرف من أكون، فعدوت بسرعة وركبت سيارتي، ثم سُقتها بسرعة إلى بيتي، في الغد وأنا ذاهب إلى الدرس، رأيت السائق والحارس يختلسان النظر إلي من سيارة يتوقفان بها بجانب الطريق؛ بنظرات غدر مخيفة، فأدركت أنهما عرف من يكون قد شاهد أحدهما يقتل، فشعرت في الحين أنني مهدد، وبأن هناك وعيد إذا ما بلّغت بجريمة القتل، وبعثت بطلب انتقال إلى قرية أخرى أو مدينة؛ إلى المديرية المختصة، لأبتعد عن مكان الجريمة وعن مُرتكبها، إلا أنه لم يُستجب لي، لأنه طلب غير مبرر بما يُشترط، وأنا مُتكتّم على ما حدث».

ظل حينا من الوقت يعيد في ذهنه ما كتب والده، فهو يكاد أن ينسى حضور أبيه في البيت، واجتماعه به، وما كان يحدثه به؛ إلا أن من خلال الكلمات التي عبر بها؛ استحضر شخصه، وأدرك إلى

أي حد كان أثر التهديد عليه، وبقائه في ذلك المركز القروي القريب من الموقع الأثري؛ مكان الجريمة، وكان أن شعر بالعطف عليه؛ كأنه ما يزال على قيد الحياة، وقال: «كم كانت مُعاناتك النفسية، ومن فعل مريع؛ كنتَ أن وُجِدت في وقت قام فيه الفاعل به، وكيف ضيّق عليك المتفقان على الانفراد بكنز الذهب ذاك، ونغَّصا عليك حياتك؛ إنهما لأسوأ مجرمين قاتلين!»، وتساءل: «فماذا حدث في اليوم الذي تلي صفحاته؟ ويظهر من عنوانه أني سأقرأ أشر مما اطلعت عليه بعد قليل»، وبدأ بالجملة الأولى، فكان وقع كلماتها أشد: «حاول السائق قتلي بطريقة لا تترك آثارا، أو دليلا ماديا، وإن أفلتُّ في هذه المرة، فلن أنجو في المرة القادمة، فماذا حدث لي في هذا اليوم؟ لم يظهر حارس الموقع ولا سائق الشاحنة في طريقي بعد يوم توعدهما لي بعيون تحذيرية؛ بثت في الخوف، وأربكت تفكيري إرباكا، وزعزعت ثقتي بنفسي، فكنت أشعر في بعض الأحيان بأن وجودي لم يعد له أي أهمية، وبتفاهة حياتي، وبظلم لا أجد من يؤازرني فيدفعه عني، أو أجده طيلة الوقت إلى جانبي، فأستعيد شجاعتي وقوتي، ولم أنخدع، فإني كنت أعرف أنهما تخلصا من جثة بطريقة طمراها بها، فلا أحدا من ذوي حفار الآثار يعرف مصيره، أو غيره، وإن كان له من الأقارب من يتنبه إلى غيابه؛ فيسأل، ويتحرّى عنه، وسأبقى أنا هدف سهميهما، ولا أشك في أنهما يخططان لتكميم فمي؛ إذا ما كنت سأُسرّ بالجريمة إلى أحد، فينتشر الخبر، وصرت آخذ حذري في ذهابي ورجوعي، وأرتعب من عيون أظنها ترصدني، وأحدق في وجوه قد يتوارى خلفها وجها الحارس والسائق الحقيقيين، وأوجِس من أحد يلتصق بجدار بيتي، وقد استُدعيت إلى حضور يوم؛ يتدارس فيه الباحثون حضارات شعوب حوض البحر المتوسط القديمة؛ نظمته إحدى كليات العلوم

الإنسانية، فلم يكن لي بد من السفر بسيارتي، وإن فكرت أن استعيض عنها بالحافلة؛ إلا أن لهذه أوقات يلتزم بها السائق، ومحطات تتوزع على طريق طويلة، ولا خيار لي كذلك، فطريق واحد يربط بين القرية والمدينة التي أقصدها، وكنت قد قطعت أكثر من نصف المسافة، ووصلت إلى الوادي العميق، وانحدر بي طريق السفح، ولم أكن قد وصلت إلى القعر؛ الذي توجد على المياه الجارية فيه قنطرة، لأصعد طريق سفح الوادي الآخر، فإذا بشاحنة تحاول أن تتجاوزني من اليمين، وحاول سائقها أن يدفع سيارتي إلى الحافة، وبعدها هاوية الوادي، فكبحت من سير السيارة، واستطعت أن أؤخرها عن اندفاع الشاحنة، وانعطفت راجعا بسرعة؛ حتى لا يتعقبني السائق، فيعاود المحاولة، ليجعل سيارتي تزيغ بي في صخور الوادي؛ عرفت أنه السائق القاتل، فلم استبعد أنه سيكرر محاولة قتلي بهذه الطريقة، وهو بشاحنته لا يفرغ منهما ذلك الطريق، ومسالك معبدة أو غير معبدة، وتراه في محال إصلاح المركبات الميكانيكية، وفي محطات الوقود، وفي القرى، وفي الأسواق الأسبوعية، ويتعرف إلى المهنيين، والحرفيين، والمزارعين، والتجار، فلا مخرجا لي من نسيجه العنكبوتي هذا».

كان ما قرأ مفاجأة، فصدمة، فانفجار في باطنه، فَرَجّة في جسده، فاحت الكلمات برائحة قتل ارتقبه والده، ولا يشك أحد في أن سيارته زاغت به في إحدى المنعطفات، فمزاحمة من السائق بشاحنته العريضة؛ ببضعة مليمترات من هيكل السيارة؛ كافية لردم أبيه في تربة السفح الرخوة، أو في غَرين النهر، وقال بظن له دليل: «مات والدي مقتولا».

أعاد ما قرأه على سمعي أمه، فتفاجأت هي أيضا، فتعطل رمشُها، وجمدت أطرافُها، ودقّ قلبُها بسرعة، وصارت تضرب صدرها بكفيها

الكبيرين، قوّاهُما الدّعك والفرْك والتَّنفيش، تصيح بعويل: «أبيدي ما أفعل؟ غير توجيه دعوتي إلى خالق الأنام، القادر على الاقتصاص من المعتدين»، وسكنت أعضاؤها، ولكن باطنها ما يزال يفور، وهو يُعيد وشاحها المفكوك بحركاتها المنتفضة إلى رأسها، ويُلملم به ظفيرتين قصيرتين شيباء؛ المحلولتين بطوح بكائها، وقال:

– سأقوم بما لم يقم به أبي، بتحرير طلب إلى الإدارة المختصة؛ بإجراء تحقيق في جريمتين، وأُرفقه بنسخة من اليوميات، فيستمع خبراء إلى قتيل يتحدث من بين السطور، وبلغة كلمات.

نظر المُستجوِبون إلى رجلين تجاوزا العقد السادس، عيونهما مهدودة؛ بجبهتين مُتجعّدتين، وبشفتين ذابلتين، وجدوا حارس الموقع الأثري بين شيوخ يلعبون الورق؛ في ساحة عمومية مُهملة، واستخبروا عن السائق، واهتدوا إليه وهو في خِربة، تُنادمه على شراب امرأة من ليالي الشوارع.

اعترفا بأنهما قتلا، وسألهما أحد المحققين؛ قائلا:

– دُفن الأستاذ القتيل، وله قبر بشاهد، وجثة حفار الآثار أين هي؟

قصدا بالمحققين إلى النهر، وفي جانب الضفة الذي يلي الماء؛ قالا بأنهما طمرا الجثة فيه، وكان ماء النهر يغمرها في فيضانه، وينحصر عنها عندما يتراجع، أكثر من عقدين من الزمن، فكانت أن استحالت إلى بعض العظام ومحلول بطمي؛ وبحمولة الوادي المترسبة، من تراب وحصى، أما ذهب الكنز فقد باعاه إلى صائغ صَهره لحلي اغتنى بها.

الـمعشوقة والصائغ

لا تغفل عيون وآذان جميع باعة زقاق المدينة العتيقة؛ سواء كانوا من أصحاب المحالّ التجارية، أو من الذين يعرضون سلعهم على طريق الإسفلت، أو على قارعته، وهؤلاء الأخيرين لم يكونوا فقط رجالا، وإنما كان بينهم نساء؛ تختلف أعمارهُن، فقد تكون أصغرهن في سن الثانية عشرة، وأكبرهن تجاوزت الستين؛ عن أي حركة يقوم بها أولئك الذين يبيعون السلع، وأولئك المارة المشترين، أو كلام منهم، أو همز، أو لمز، أو غمز، أو ابتسامات، أو لقاء بين اثنين أو أكثر، وما إن سمعوا بالعثور على اليهودي (يعقوب)؛ الصائغ للفضة والذهب مقتولا بأحد المراحيض العمومية؛ حتى كادوا أن يجزموا بأن القاتل كان من الذين يغدون ويروحون، في الممر التجاري الذي يضيق بالناس، ولم يأثموا إن هم ظنوا بأن المتسول فلان؛ الذي لا يبرح باب الجامع إلا بعد صلاة العشاء؛ هو القاتل، أو حمّال البضائع الذي لا يغادر مكان وقوفه إلا لينقل بعربته الخشبية الأثقال، أو قارئَ عظمة الكف، أو سانحَ الحظوظ باستدراج البعض؛ من الذين يقصدون الدكاكين لابتياع ما يحتاجون إليه، أو من الذين يتجولون بين البيوت القديمة؛ إلى لعبة (الدّومينو) المُجلْجِل لصفيحة المُعلّب، أو الخيط المنفلت بحيلة عن سبّابة الحالم بربِح قطع نقدية، ولما سمعوا في أحد أصباح يوم من شهر ماي؛ بأن المحققين في جرائم القتل قد اهتدوا إلى الفاعل، وقد اقتادوه ليلا مقيد الرُّسْغين، بعد أن اقتحموا عليه غرفته، وهو يطلب النوم من جفنيه، دون أن يدري بأنه يوهم نفسه بالإِفلات من العقاب، وسألوا بعضهم البعض عمّن يكون، وقد كان هو مُوزّع الخبز (مُوحى)؛ يُرى بعربته الخشبية يُفرِّقه على دكاكين البِقالة، وعلى بائعات الفطير و(الـمُسمَّن) و(البَغْرير)؛

مرتين في اليوم؛ مرة في الصباح الباكر، ومرة قبل قَلْي السمك، وشيّ المفروم من اللحم في المطاعم المتواضعة، وما إن تلقت آذانهم ذلك حتى أمطرت عيونهم بنظرات بائعةَ الخبز (زَهْرَة)؛ التي لا تتجاوز الثلاثين من العمر، وكانت النساء يستودعن عنها من الأسرار ما لا يُعره الرجال أي اهتمام، أو هن أكثر اهتماما بتلك المرأة؛ الطويلة القد، عريضة العجيزة، مندفعة الصدر المنهود؛ ضامرة الخصر؛ بذات العينين الواسعتين الكحيلتين، والحاجبين السوداوين، والرموش الطويلة السوداء؛ ينطق الرجل فيقول: «ما أَهْيفها!»، وتتفوه المرأة فتقول: «ما أجملها!»؛ ذلك أنه لم يخف عنهم استيهام موزع الخبز بها، وهي كان رضاها بتَغزّله بها تُعبر به عيناها، وابتسامتها العريضة، وحركاتها المستجيبة من يدها المتلألئة بالخواتم، وبمرفقها العاري والمزدان بدماليج مُذهبة، وكانوا يعرفون -رجالا ونساء- أنها لن تكون طوعه، فتزف إليه عروسا إلا بصَداق كبير المبلغ، وبِجِهاز مُكلِّف يُلجِمان أفواه من هن في عمرها والعجائز، فإنها تساوي الكثير، وجمالها يفرض عليه هو بائع الخبز ذلك الكثير. إنها معشوقته هو المسترزق اليومي، فإما أن يعقد الزواج بها، فيُعاشرها مُستمتعا بما طاب له من جمالها الجذّاب، أو يهيم على وجهه هَذْيا فيُجن، إنه مجنون بائعة الخبز؛ هي (زهرة) عود خيزران يفقأ به عينيه هُياما به.

هو تعشُّق المرأة الطافحة بإغراءات الأنثى، والواهبة للحياة، وحاجته هو إلى المال؛ أنّى له به؟ والفقر يعوقه عن كسبه بالقدر الكافي؛ لا يملك شيئا ذا قيمة؛ العربة مجموعة من الألواح الخشبية؛ يتركها في أي مكان؛ لا تساوي فلسا واحدا؛ حتى يَستأمِن عليها حارسا، أو مكانا آمنا.

«أهناك بلاد أخرى ألتجِئ إليها؛ أجد فيها ما أفتقده؛ كأن تروج فيها تجارة تُدرّ عليّ مالا كثيرا؟ وهل توافقني (زهرتي) الناضرة على

الهجرة معي، وإلى الأبد؟ ولا يطّلع أحد سواء على كَفَافِنا إن ظللنا مُعوزين، أو على غِنانا إن صرنا غنيّين»؛ تحدث بهذا (موحى) وهو في غرفته مستلق على فراش رث، ثم طرأ عليه فعل؛ هو أقصر طريق إلى الاغتناء، وتصور أنه يكتُمه حتى على نفسه، وخاف أن تسمعه الحيطان التي تفصله عن الجيران، وما نطق به في نفسه؛ مُستمرا في تفكيره هو: «... وسأهرب بزهرتي ذات الجمال الفَتّان الذي يخلب الألباب».

ما من زقاق من أزقة المدينة القديمة إلا وطرقه (موحى) عشرات المرات بعربته، وإن ضاقت طُرق حيّ (الملاّح)؛ سكنى اليهود، فتحذيره للمارة بصوت مرتفع بقيادته للعربة؛ يجعلهم يفسحون له الطريق، وإذا ما عاد في المساء إلى بعض أصحاب الحوانيت؛ في النصف الأول من الليل ليأخذ مقابل الخبز المُقسّم؛ يرى الصائغ (يعقوب) راجعا من دكانه، الذي يصوغ فيه الذهب والفضة، ويبيع حُليّهما، ويراه في إحدى المرات، وفي نفس الوقت من الليل، وبعد أن يقفل باب محله؛ يقصد المراحيض ليقضي حاجته، ويمضي بيده اليمنى يَتثبّت بحركات متتالية من أن المفتاح في جيب سرواله الأيمن؛ وهو يسير حاصِرا لما في مثانته، وليس في جيب آخر من ملابسه؛ إنه الآلة التي يُغلِّق بها أبواب ثروته.

فيقول (موحى) مُتحسِّرا: «آه من ذلك المفتاح؛ إنه لِدفّتي باب تُشرّعان على ما لا أحققه طيلة عقود عُمُري!».

أذن مؤذنو مساجد وجوامع المدينة لصلاة العِشاء، وهو ما يزال يتكلم مع أصحاب الدكاكين؛ في شؤونهم التجارية، ويُعرج على (زهرة) فيبادلها تحية المساء، ويغمز لها، فتبتسم راضية؛ سعيدة، ويبعث إليها بنظرات لا تعني إلا أنه مُتيم بها، فترد عليه بطيبة نفس، ويُشاهد الأزقة وهي تخلو بعد الصلاة، ومصابيحَ الحوانيت تُطفأ،

وأبوابها تُقفل، فيخطو في زقاق الصّاغة، فتلتقط عيناه (يعقوب) وقد أقفل حانوته، واتجه كعادته إلى المرحاض؛ مُستكينا إلى مفاتيحه؛ عَجِلا في مشيته؛ مُستعْجَلا للوصول إلى المَصْرِف، فيُسرع (موحى) خطواته إلى عربته التي ركنها غير بعيد، وهو لم يعد يسمع إلا وطآت حذاء تبتعد، ولا يرى إلا شبحا أو شبحين تبتلعهما الطرق الضيقة والمظلمة، فيقبض بأصابع يده اليمنى على قضيب بنتوء حديدية؛ من قضبان الإسمنت، زوده بكاتم للصوت من لفائف من ثوب، ويسير مُتسمّعا وقع بُلغَة (يعقوب)، ويسبقه إلى بيوت الخلاء؛ التي كانت منعزلة في زقاق ينتهي إلى خربة قل من يطرقه، كانت فارغة؛ وغارقة في الظلام؛ يقطع سكونها سقوط قطرات الماء من أنبوب صدئ متآكل؛ على بقايا زليج، ووطآت صندله الجلدي المبللة؛ هي الوحيدة التي يُرجِّع صوتها؛ فيصل الصدى إلى مسمعه، يتوقف ناقلا عينيه في لمح البصر؛ في الأبواب القديمة؛ المفتوحة؛ المهترئة الخشب، ويتوغل إلى الجدار العميق مختفيا في الظلام، فيرى جسد (يعقوب) يحجب عن المدخل ضوءا باهتا آتيا من الخارج؛ من بعيد، ويداه تتلهفان على فتحة سرواله، ويدفع أول دفة في طريقه، ويدخل، ويوصد الباب بالسُّقاطة الحديدية، وتحت سُرّته يكاد ينفجر؛ لم يفصل (موحى) عن (يعقوب) إلا وقتا من ثانية؛ كان قد دخل إلى المرحاض المجاور، واعتلى الحائط الفاصل الوطِيء، واختلط صوت الانسكاب المندفع، وانتشار الرذاذ، وارتخاء الأنفاس؛ بضربة الحديد قوية؛ مكتومة؛ لا تُسمع أبعد من المكان، على الرأس الأشيب، فتهاوى (يعقوب)، ونبض عرقه مدة خمس دقائق فقط.

أمسك موحى نفَسَه عن الرائحة النفّاذة، وهبط، وأدخل أصابعه في الجيب، وأخرج المفاتيح، وعاد من حيث وثب، وأسرع راميا بالقضيب في الخِربة، وأسرع محتكا بالحيطان إلى حانوت المفاتيح،

فتحه، وحمل نقود الخزنة والحليّ من الذهب، وآوى إلى غرفته، واضطجع وقتا يسترجع فيه هدوءه، ثم قصد مبيت (زهرة)، دق دقا خفيفا على بابها؛ مناديا عليها بصوت منخفض، نبهته على الفور من الباب الموارب إلى الجيران، وقال هو بصوت مُنهك ومرتعش، وبِوَلَهٍ: «هذا خاتم من ذهب من مال ادخرت منه الكثير، يكفينا معا لنغادر بعِشقنا إلى بلاد بعيدة»؛ نظرت في وجه استغربت ملامحه، وشعرت بقلق لم تعهده، فأغلقت الباب، رجع هو منكس الرأس؛ نافضا يديه من كل أمل؛ ولم يعد يرى نفسه إلا في درب مظلم واحد فقط.

لا يُغمِض النوم جميع العيون في الليل، هناك امرأة غاب عنها زوجها، فسهِدت في الليلة الثلاثين، وظلت تُطل باشتياق؛ من كوة غرفة معتمة؛ على بناء مقوس يمتد تحته الزقاق؛ ترى منها قَوامَ من يغدو ويروح، ولا تُرى؛ بنقاب أسود؛ بعينين كحيلتين؛ كان بائع الخبز؛ عاشق بائعته؛ آخر من رأته يسير مع امتداد الحيطان؛ راجعا من الكَنِيف، فأخبرت به؛ ناظرة إلى المحقق من فُرجة تركتها بين غطاء الرأس والنقاب بعينين واسعتين؛ معروقتان بالدم؛ ما يزال على رموشهما بقايا عمل مِرود المِكْحلة؛ قائلة: «إذا قُتل اليهودي في بيت الماء؛ عاري العَانة، فإن (موحى) هو آخر من شاهدته يترك المكان قابضا بالأداة».

أكان ذلك نكاية بالمعشوقة؟

كانت (زهرة) أول من حُقق معها، وفاهت بالخاتم الذي أغراها به (موحى)، لتهرب معه، لكن فطنتها بأمره الغريب رأت فيه شخصا آخر غير الذي بادلته شعوره، ومنعها قلبُها من أن تَتّبعه، وأوصدت الباب دونه في سَحَر ذلك اليوم. في الغد كان مكانها من السوق خاليا؛ لا منها، ولا من طاولة عرض الخبز الخشبية الخاصة بها، لقد

رحلت (زهرة) الفاتنة دون عودة إلى وجهة يجهلها الجميع، وظلت حكاية تَعشُّقِها الدامي؛ تُطلَق بها الألسُن سارية بين الناس؛ في حديث الموائد، وفي لوائم الأعراس، وفي جلوس على شاي أو قهوة، وفي سمر المقاهي، وفي دهاليز القِمار.

الْحَنَش الْـمُتآلَف

تآلفت مع أحد أحناش دغل نبات الصّبّار؛ في ربيع أحد الأعوام، وتحدثنا معا في شؤون كثيرة، وأشياء عديدة...

فما الذي دعاني إلى الخروج من بيتي، تاركا الحي الذي أسكن فيه، وأولي ظهري لبنايات المدينة؛ المتلاصق بعضها ببعض؛ ويضيق بعض أزقتها، ولا تكاد تتسع شوارعها لسكانها في الغداة وفي الرواح؛ مُتخطيا خطوط سكة حديد؛ إلى الحقول والبساتين؛ يكاد أن يكون نبات الصبار سياجات لها؟ وفي أي وقت من السنة؟ وما الذي توخيته منها؟

تكون تلك الجهة بعيدة عن الضّوضاء، ويكون جزء من الحقل غير مزروع؛ لنقل أنه يُترك لفترة استراحة، أو لا يُنبّت فيه شيء على الإطلاق؛ تهطل عليه أمطار الشتاء، فيغطيه بساط من عشب طريّ أخضر، وسيقان الأزهار، والنبات النجمي الشّوكي؛ ذي الأوراق المُشوّكة؛ تسطع عليه أشعة شمس ما قبل وقت الظهيرة؛ في فصل الربيع، فيكون جوه دافئا، وقد تراجعت برودة الشتاء؛ عن المخلوقات الحية؛ أجد إليه ممرا بين جذوع الصبار، فأجلس فيه، أو أخطو عبره جيئة وذهابا؛ مسافة تُسعفني؛ قابضا بدفتر كبير الحجم؛ أفهم فيه دروسا في علم أتلقاه في كلية الجامعة، أو أحفظ منه ما يتوجّب علي؛ تحضيرا للامتحانات التي كانت تُنظم في الأسبوع الأول من كل شهر (ماي)؛ من كل سنة دراسية؛ فهذا استعداد يكون في شهر (أبريل).

ففي يوم أتهيأ فيه لليوم الفاصل، وعيناي تنهب السطور، وعقلي يحاول أن يفهم، وذاكرتي تحاول أن تحفظ؛ إذ نظرت إلى جانبي؛ مُسترجعا جملة عصية الفكرة، فوقعت عيناي على ورقة الصبار

العريضة؛ ممتدة من الغصن الغليظ، يتلولب عليها حنش مرقط الجلد باللون الأصفر؛ رافعا رأسه باطمئنان إلى أعلى مُتشمّسا، مُستمتعا بجو الربيع الصافي؛ كما أتشمّس أنا أيضا؛ مُستمتعا بجو الربيع الرائق؛ ناظرا إلي بعينين براقتين؛ لا تفصله عني إلا مسافة خمسين سنتيمترا؛ يلتمس دفء جلوسه بجانبي؛ كأنني أنا أيضا ألتمس دفء وجوده بجانبي.

أيُمهِل الإنسان نفسه ليفكر في قرار في تلك اللحظة؟ إنه الخوف؛ تنتج عنه ردة فعل سريعة، ودون تأخر؛ هو إطلاق العنان للساقين، بمسافة يتأكد منها أنه في أمان من ذلك الحنش المُروّع في شكله. لم أكد أنطلق انطلاقة العدّاء القوية والسريعة؛ حتى سمعت ما هو موجه إلي؛ فقد تفوه الحنش آمرا:

– الزم مكانك يا آدمي، وإلا أرسلت في أثرك جميع أحناش الدّغل.

لم أخط قيد أنملة، والتفت إليه بخوف قائلا:

– هذا لا يصدّقه عقل الإنسان؛ ألا أهرب من أمامك؛ ناجيا بروحي!

قال مهدئا من اضطرابي، وبلباقة:

– عُدْ إلى مكانك، فإني أعطيك الأمان.

سكَتَ لحظة، وأتبع ذلك سائلا:

– أنتم معشر البشر؛ أتُستَأمنون؟

قلت وفريصتي ترتعد:

– لا... لا...

قهقه الحنش، وقال:

– جعلك الخوف مني تصدُق في قولك، ولا تُخفي عني شيئا، أهكذا تصْدُقون فيما بينكم وبين نفوسكم يا أبناء آدم؟

قلت مُسترحما إياه:

– لا... لا... ننافق بعضنا البعض... دنيانا نفاق... تفوح منا رائحة النفاق... تتضوع بها علاقاتنا اليومية... إننا نتعطر به في صباحاتنا.

قال مُحرّكا رأسه حركة عاقل؛ ذكي؛ لا يخفى عنه شيء؛ ناظرا إلي بعينين هادئتين:

– أعرف، ولا تحسبنّ أني جاهل، فإني علمت من جدي الكثير من أخباركم، وطبائعكم؛ ذلك أنه كان يسكن جُحرا قريبا من بيت أحد الدواوير، يكفي ما حكاه لي؛ عن أقصى حد من شروركم.

سألته متوددا له حتى لا يُؤذيني:

– ما أبلغك في كلامك؛ ماذا يا تُرى روى لك جدك عن جنسنا؟ هو أوضح صورة عن أذى الإنسان لأخيه الإنسان بلا ريب.

أجابني وهو يخزُرني؛ كأنه يتوعدني:

– ثلاثة إخوة قتلوا أباهم، وطمروه أحد الأودية.

سكَتَ لحظة تاركا لي بعض الوقت لأعود من ذهولي، وأهدأ من صعقة ما سمعته، ثم استطرد قائلا:

– باع والدهم غَلّة في السوق، فقتلوه طمعا في المال، من دل المحققين على مكان مواراة الجثة، وعلى مخبأ النقود؟ إنها أختهم الصغرى الخرساء؛ بإشارات من يديها وأصابعها؛ أطلعتهم بكل ما شاهدته.

خفضت رأسي عدة مرات؛ مُستَح مما سمعت، ورفعته مُسْتصغِرا نفسي أمامه علامة على أن: «نعم»، أما هو فقد اكفهر وجهه من التألم، وأوذي في نفسه، فانساب من ورقة الصبار، ودب على العشب؛ مقتربا مني، فحاولت الابتعاد عنه، إلا أنه قال لي؛ غير مكترث بخوفي:

- لا تبتعد عني، اِطمَئِنّ ولا تخف.
وتلولب بعصبية رافعا رأسه باندفاع، وقال:
- وما أحمقكم حين تُشجّعون أولادكم على تربية الحيّات في بيوتكم! وهؤلاء كبار منكم أيضا؛ إنها حماقات سكان المدن.
قلت بشجاعة كاذبة، محاولا أن أبين له أنني في صفه:
- إيه أنت؛ لم أرو عليك حكاية... اسمع ...إن في تاريخ البشرية العسكري حماقات، لو ترى البوارج الحربية العملاقة المُكلِّفة؛ كأنها أهرامات من فولاذ مُرهبة؛ التي تحاربت بها دول أوروبا الغربية في حروبها المعاصرة.
قال؛ وما يزال التأثر بمقتل رجل من طرف أبنائه باديا عليه:
- إنكم تذبحون بعضكم البعض من الوريد إلى الوريد، وبهذا فإنكم تدّعون أنكم تتبعون سنة نبيّكم، فما عملكم بحديثه؛ حين نهاكم حتى على الإشارة بحديدة في وجه إخوتكم، ولو كنتم مازحين؟
ألجم فمي، فلم أنطق بأيّ كلمة، فماذا أقول؟ وقد استحييت من حكمة هذا الحنش، وفي لحظة قلت في نفسي: «لماذا لا أدفع عني هيمنة هذا الحنش؛ الذي يستمد عجرفته من بيئته ذات الأحراش، ويُخوّفني بها، فلأمكر به حتى أُضعِف شخصيته»، قلت:
- في كتب الأديان قصص عنكم، ونحن نصدق بجميع ما أتى به الكتاب؛ ما أوحي إلى الأنبياء.
اكتفيت بهذا وبخبث؛ ولم أزد عليه ما ورد في تلك القصص، حتى يصير نهبا للشكوك، فكست وجهه غيمة، وتقطب جبينه، واضطربت نفسه، فقال:
- ماذا حكت عنا الكتب المنزلة؟
أجبت دون أن أبين المقصود:

– حيّة منكم كانت قد اهتزت كأنها جان –وأنت جان في حركاتك– وجعلت موسى –عليه السلام– يوّلي مُدبرا، لولا أن طمأنه الله تعالى، وأخرى منكم خبّأت إبليس بين أسنانها، ودخلت به إلى الجنة ليستَزل آدم وحواء، وثعبانكم كان قد تحول من عصا موسى عليه السلام، وكاد أن يُجهز على فرعون.

قال مُنهزما:

– تريد أن تقول أننا ذوو حيل، وشكلنا يخيف، وأننا نقتل بسُمّنا.

قلت بشجاعة:

– نعم، وهذه آيات من الكتاب تصور ذلك، وهاك آخر ما سمعت... منذ زمن قريب لقي رجل حتفه، لم يكد يقترب من أحد ثعابينكم حتى نفث عليه سمه من مسافة، فمات الرجل بعد وقت وجيز، إن هذا لمخيف جدا!

قال بهدوء، وبثقة:

–كان الثعبان يدافع عن حِماه، كما أدرك أن الرجل يريد به سوءا.

قلت له بغضب، وفي ظني أني استحكمته:

– أُسكت، وإلا بعثت بك طردا بريديا إلى (تكساس) أمريكا.

انتفض صارخا:

– لماذا؟

قلت مُتشفّيا فيه:

– ليفصلوا رأسك عن جسدك بالمُدية، ويعلقوا جسمك في مخطاف حديدي، ويسلخوا جلدك عن لحمك، وينزعوا منه أحشاءك؛ على مرأى من مئات المتفرجين، ويصيح الآباء الأمريكيون في أطفالهم الذين يصطحبونهم في هذه المناسبة: «هيا اِسْلَخْ الجلد عن لحمه، ولطخ يدك بدمه، ووقع اسمك به على الحائط»؛ إنه مهرجان لقتل الأفاعي في أمريكا؛ لأن عددها يتزايد، ولحل هذه المشكلة،

فإنهم يدرسون جعل لحومها في وجبات الطعام؛ كحرب بيولوجية للحد منها[3].

تراجع الحنش، ولاذ بورقة الصبار الشائكة، وتلولب، وظل يُحلق في وجهي، مُسترجعا بشاعة الصورة التي نقلتها إليه.

قال بخوف:

– هذه إبادة لجنسنا، والحال أننا سننقرض.

قلت مُتجبّرا:

– نحن البشر عُتاة، ولنا فنون في الإبادة؛ ينقرض شعب شبه جزيرة (كامتشاتكا)[4]؛ (الكورياك)[5]؛ بكحول (الفودكا)؛ الإدمان ثم اليأس.

فلم يرقّ قلبي له، وقلت لأزيده غيظا:

– وحيّتُكم (الأنوكاندا)، أتعلم ماذا تفعل بالأنعام؟ إنها تبتلغ بقرة.

صار ينظر في أي اتجاه، لا يستقر على أي رأي، في لحظة تبّث نظره في عيني؛ كأن فكرة طرأت على باله، فهبط مرة أخرى، وتلولب كعادته مسترخيا، فبدا لي أنه يستجمع ما يريد قوله، ثم ابتسم، وأخيرا قال:

– في ساحة (جامع الفنا)[6] يُسترزق بنا.

قلت:

– تقصد مُروضي الثعابين؟

قال بحزم:

– نعم.

---

[3] مهرجان يُقام في ولاية (تكساس) بأمريكا للتمثيل بالأفاعي لأن عددها يزايد.

[4] جزيرة تابعة لروسيا، توجد في الشمال الشرقي منها.

[5] شعب شبه جزيرة (كامتشاتكا).

[6] ساحة عمومية في مدينة (مراكش) بالمغرب؛ تُعقد بها حلق تقليدية للفرجة.

سألته:
- ثم ماذا؟
أجاب:
- في الهند تُخرجنا موسيقى الزَّرْنة (الغَيْطة) من السّلال، وفي ذلك فُرجة.
وسألته مرة أخرى:
- ثم ماذا؟
قال؛ ووضاءة على وجهه:
- وهذا الذي يلي يستعصي عليك تفسيره، وهو لنا مفخرة.
قلت:
- ما هو؟
قال:
- أجبني ما هو شعار صيدليتكم؟
فاجأني، فارتج جسدي، وقلت مُستسلما:
- أفعى تلتوي على كأس وعصا.
سألني:
- إلى ماذا يرمز، أو ماذا يعني، إنك لا تكاد تُفسره.
قلت:
- انتظر، سأتزود بمعلومات عن ذلك.
سألني:
- كيف؟
لم أجبه، وأخرجت هاتفي الذكي؛ قائلا:

– سأستدعي برناج (ChatGPT)[7] المعلوماتي، ليمدني بمقال محكم الشكل؛ وافي المضمون.

قال مُتهكما:

– غدوتم عبيدا للبرامج المعلوماتية؛ إنها تقلب حَيواتِكم رأسا على عقب.

لم أعر لقوله أي اهتمام، وشرعت ألخص له ما حرره الـ(ChatGPT):

– يُقال أن ذلك الشعار يتكون من ثلاثة عناصر؛ الأفعى لها رمز أسطوري؛ يعود إلى زمن الإغريق، استُمدّت من أساطير الآلهة عندهم، وترمز إلى الصحة، ذلك أن سمها يدخل في علاج بعض الأمراض، والكأس أعطته ابنة آلهة الطب عندهم إلى الحية لتشرب منه بعد وفاته، والعصا هي لإله الطب.

قال بفرحة المنتصر:

– أحسنت.

ثم تابع قائلا:

– أنتم معشر البشر تعيشون أعراس الاختراعات الدقيقة!

قلت بزهو:

– نعم.

قال مُتباهيا:

– أو سمعت في خضم أخبار زلازل بلاد الأناضول وبلاد الشام، أنكم استطعتم تركيب (حنش روبوت)، يقدر على أن يدب بين الحيطان والسقوف المنهارة؛ بحثا عن الأحياء والأموات؟

قلت بانهزام:

---

[7] برنامج معلوماتي يحرر أي موضوع بمقدمة وعرض وخاتمة، متاح على الشبكة المعلوماتية، وهو متطور عن محرك البحث (كَوكَل).

– لا؛ والأحرى أن لا يجهل مهندسو الأبنية والمقاولون مورفولوجية سطح الأرض التطبيقية، أو يتغافلون عنها، لبناء بيوت وعمارات تخفف من حدة الزلازل.

قال بثقة:

– إنك عرفت ماذا أعني، فلولانا لما استوحى علماء التكنولوجيا من شكلنا (الحنش الروبوت)؛ ذلك أن هيكلنا العظمي مُشكل من فقرات مرِنة؛ تُؤهّلنا للزحف على أي سطح، وخدمة أخرى قد نُؤديها للمُسعِفين في الزلازل...

سألته مُتلهفا:

– ما هي؟

قال بصرامة:

– بإمكانكم أن تُدربوا سِربا من الأحناش، وتأهيله لينساب بين الجدر والسقوف والشقوق؛ مُزوّدا بمجسات وكاميرات.

قلت بحماس:

– سأُبلغ مجلس بلادنا الأعلى لتطبيقات العلوم التكنولوجية بفكرتك.

قال مُتثائبا:

– لقد تكلمنا بما يكفي، إلى اللقاء.

قلت برجاء مُتخلِّقا:

– سأزورك بعد ثلاثة أيام.

سألني:

– أفي عدّك للأيام هذا معنى؟

أجبت باستقامة:

– التآلف يستدعي الزيارة بعد اليوم الثالث.

قال مُستحسنا:

- مَرْحى... مَرْحى.

وتوغل بين سيقان النباتات، واختفى في الدّغيلة.

بعد المدة التي تلزمني أن أتفقد فيها صديقي الحنش، قصدت دغل نبات الصبار، وما إن أطَلَلْت من بعيد على مكانه؛ حتى تسمرت مبهوتا، ذلك أنني لم أجد له أثرا، ولا للحقول المبذورة، أو البساتين المغروسة، بل وجه أرض استُأصِلت جذور نباتاته، وسُوّي ترابه، فقد كانت تعمل في المكان حفارات الأنفاق، وجرافات الأتربة، وممهدات الطرق؛ هديرها المستمر يملأ الدنيا ضجيجا؛ وقرأت على لوحة عملاقة؛ عرضا بمشروع بناء عمارات سكنية وتجارية؛ بأكثر من عشرة طوابق بمصاعد، فرجعت إلى بيتي جَزِعا على مآل الطبيعة. بعد أسبوع سمعت بأن بعض سكان أحياء المدينة والقرى؛ يستيقظون على أحناش تغزو بيوتهم، وقد تقرر تنظيم فرقة على معرفة بسلوك الحيات، ولها خبرة بكيفية أسرها وقتلها، فأدركت ماذا حدث؛ إن بيئة الحيات فقدت توازنها بغزو الآلات الميكانيكية، فتراجعت الأحناش مُضطهدة إلى أماكن تختبئ فيها، وترتوي من الماء، فأول ما قلت وبحزن: «هل ما يزال إلْفِي الحنش حيّا بينها؟».

الثَّكْلَى

لا أبرح غرفتي إلا لاستجمام، ولا إلى مكان آخر غير شاطئ البحر، فهو أحب فضاءات الاسترواح والاسترخاء إلي؛ لأرجع بعد وقت تكون أمنيتي أن يطول؛ بأحلام الإبحار في ذلك البحر الممتد إلى قارة أخرى، أو إلى جزيرة مُنعزلة؛ ساكنة الحركة، وبأفكار مُنتعشة؛ إلى الكتب والقراطيس والقلم، فأنا كاتب قصص.

ولا يوما في الأسبوع مُقنن -غير الأحد- تُحرر فيه الأقدام من القيد، ويُخلى سبيل الإنسان، فيتحرك بسجية إلى مكان من اختياره، فغادرت في أحد الآحاد البيت بلباس ثائر على أناقة مفروضة، وبحذاء لا يتطلب أدوات تلميع، وقصدت الرمال والصخور بعد العصر مُترجلا، وفي جو خريفي، وبانفراج في الباطن؛ على يمين طريقي غابة تخليف، بها ممرات ممهَّدة، وكراس مُظلَّلة، ومطايا ألعاب للأطفال من خشب ومعدن، وعلى يساره عمارات قصيرة بواجهات ذات نوافذ عريضة، وطلاء أبيض ورمادي؛ تسرح عليه العين بارتياح، ويستعجلني الشوق إلى مسلك مُترّب، ينحدر بين بيوت الاصطياف؛ جَلَبتْ إليه أقدام المصطافين الرمال؛ لشيئين: صوت هدير الموج، ورائحة البحر؛ كفيلان هذان بأن يُسعدا، وترحب بالإنسان البسيطة.

كان الشاطئ خاليا؛ إلا من ثلاثة صيادين؛ أحدهم انتصب على صخرة عالية؛ أطال قصبته المركبة، وأرسل الخيط إلى الأسفل؛ حيث غاصت الثُّقالة بالطعم؛ وظلت الفلينة طافية بها، والآخر تقدم على الرمل إلى أن غطست قدماه في الماء، وتسمر ينظر في رأس قصبته المنبئة بسمكة حلم، والثالث عبر إلى رصيف صخري؛ رسا قاربه قريبا منه، وظل يُصارع الأمواج المترددة بقوة؛ بالقصبة العملاقة؛

وبِمطر واسع وسروال غير نافذ للماء، وجرابه يتدلى من رقبته؛ مُستحكم بإبطه.

والذي يتنقل مثلي على الرمل الجاف والمبلل، ومُنح اتساعا يجوبُه؛ بوقت فارغ إلى حين، فهو وأنا لم نأت -كما بدا لي على الأقل- إلا لِسُكون، وإرسال النظر إلى الأفق، وسماع سيمفونية الشاطئ الهادئة، وانتظار الغروب الساحر، هو امرأة...

كانت قد أزالت زوج حذائها من رجليها، ووضعتهما على صخرة واطئة، وسارت ست خطوات، ونزلت بجذعها، وطوت ركبتيها، وجلست على ساقيها، ودست وجهها بين الركبتين؛ مُلتقطة صدفات رخويات حية من الرمل، وصارت تدفعها إلى مويجات تتقدم وترجع، وتحفر بعود في الرمل المتشبع بالماء؛ سمعتُها تُدندن بصوت حزين وهي مستمرة بذلك، فتعود وتقوم وتتابع خطواتها ببطء في نفس الاتجاه الموازي لماء البحر المتحرك؛ غير مبالية بفردتي نعلها؛ مما لاح لي أنها ما فوق الأربعين؛ طويلة القد؛ لا هي بنحيفة ولا بدينة؛ بين بين؛ تغطي شعرها بوشاح رمادي؛ خفيف النسيج؛ تظهر من تحته خصلات سوداء، وتلبس ما أسبلته إلى ما تحت الركبتين، وسروالا مغايرا في اللون، وليس لها حقيبة يد؛ لا تلتفت بالمرة في الأرجاء، ولا تعير أي اهتمام إلى من قد يوجد في ذلك الوقت في الشاطئ، ثم رأيتها تدخل إلى البحر؛ دون أن تكترث للماء الذي سيبلل أطراف ألبستها، وتقدمت حتى غاص ساقاها، فكانت الأمواج تضرب عند ركبتيها، وخطت أكثر؛ إلى أن صار صدرها هو من يتلقى ضربات الأمواج، وكانت تتعثر بصخور الأعماق، وتكاد تفقد توازنها، وقد تسقط، وفي هذه الحالة يجب أن تعوم إذا كانت متدربة، فأسرعت خطواتي وناديت وجلا ومترددا:

– ارجعي سيدتي... فإن البحر في مده، وفي غير موسم السباحة... والماء هائج...

سَمِعت تحذيري، فالتفتت إلي بعينين غائبتين غير مباليتين، وبابتسامة مكتومة؛ تجاهد حزنا دفينا، وقالت:

– كنت سأعود؛ هو الموج استمرأت مداعبته لجذعي؛ لخصري وصدري؛ دفعاته تُؤرجحني؛ تُراقصني...

شممت من كلامها أمرا غريبا، غير مألوف...

تَركَتْ الماء مُبللة تقطر، وصارت تعصر أثوابها، وتعيد أطراف الوشاح إلى رأسها. رفعتُ عيني إلى وجهها مرة واحدة لما دنت مني، وحدقت فيه؛ ليست فيه أي نضارة؛ خدان متصلبان، وشفتان مزمومتان، وصدغان ظاهران، والعينان واسعتان؛ غرقا في غَوْرَيهِما؛ قالت:

– أشكرك.

قلت باهتمام:

– توغلتِ أكثر سيدتي؛ مما لا يسمح به هذا الفصل، والشاطئ خال تقريبا...

نظرت إلي؛ كأنها تنظر إلى شبح؛ لا تنتبه إلى أي شيء فيه، أو يشد نظرها أو يثيرها، وقالت:

– الشاطئ والبيوت ساكنة... أأنت مثلي تلوذ بهذا المكان؟

قلت مُشاركا لها إلى حد ما:

– في بعض المرات يكون ملجأ، وغالبا للتجول، والراحة من القراءة والكتابة.

سألتني:

– أأنت كاتب؟

أجبتها مبتسما:

- نعم.

وكأنها قالت تسأل:

- تُجهد نفسك؛ وتعتكف في محراب إبداعك، وتصوم؛ لتُسعد الآخرين بقراءة ما تكتب؟

قلت كذلك:

- نعم.

قالت:

- حياتي أنا كتاب؛ أقرأه وحدي، وأستمر في قراءته للمرة الثانية والعاشرة والمائة، وما تزال الأيام تأتي بما يستمر، ولن ينتهي كتابي ذاك إلا في ذلك اليوم الذي أودع فيه الدنيا.

سألتها محاولا أن أرغبها في شيء يُمتِّعها، ويزيد من أحلامها، وتتفاءل به:

-أتقرئين؟

أجابت وكأن انعطافا حصل في حياتها بعد حدوث أمر ما:

- أشكرك؛ ذكرتني وأعدتني إلى الكتب؛ أنا بحاجة إليها الآن.

سكتت، وقبضت من جديد على أطراف لباسها، وعصرتها بقوة حتى انقطعت منها القطرات، ونظرت إلى حفرة صخرية انحصر فيه ماء المد الفائت؛ يندفع فيه (روبيان) دقيق، وتسبح فيه أسماك صغيرة، وتختفي في أغوارها السرطانات؛ قالت دون أن ترفع عينيها:

- إنها كائنات ضعيفة تمرح في بيئتها، والأخطبوط لا أرى منه إلا سحابة مداده.

وانحنت ورفعت أصداف محار ورخويات أخرى؛ قالت وهي تتأملها:

- إن مثل هذه الأشكال من الحياة تُسليني وتُنسيني إلى حد ما؛ وكثير منها موجود في طول الشاطئ.

وبعد صمت تابعت كلامها، وهي تمشي؛ تلتقط أشياء الشاطئ الرملي:

– وهذه أصداف فارغة من رَخَوي حيّ، وعشب بحري يابس، وهذه قطعة خشب طافية وأخرى جافة؛ إحداهما مختومة بأسود ما يزال يقاوم أثر الماء؛ يحمل إلي خبر قوم؛ أتصور أفراده يسكنون إحدى الجزر البعيدة؛ يعبر عن يومهم ذلك الختم...

وامتدت كذلك يدها إلى قنينة بلاستيكية من (مَارَكة) مُستحضر واق؛ وقالت:

– وهذه تُنبِئني بأن سيدة صيّفت هذا العام؛ تعتني بنضارة جلدها...

... وإلى أداة لعبة للحفر في الرمل، وقالت:

– تلهّت عن هذه طفلة... تشبه ابنتي عندما كانت صغيرة؛ تخيلتها تبني بها قصورا من الرمال...

ولم تغفل عن طبق طعام جاهز ورقي مرمى؛ ونطقت قائلة:

– وهذا أسعد نفوس أفراد أسرة مُتوائمين، وغذّى ما قُدّم فيه أجسامَهم...

ولم تغفل كذلك عن أوراق مجلة غربية تهرأت؛ تحتل صفحاتها صور فوتوغرافية مثيرة وبهية؛ قالت:

– أضاف أحد هذه الصفحات إلى منظر الشاطئ، فهو قد عاش بخياله وبحلمه حياة مُترفي ما وراء هذا المحيط؛ نقلتها إليه المجلة؛ وهو في آن يضطجع متمتعا بشمس الصيف والبحر والغروب...

خُيّل إلي أنها لن تنتهي من تناول كل ما يقع عليها بصرها، وهي تسعى أن تتخيل بكل ما يمكن أن توحي إليها مقذوفات البحر تلك.

اِنصَرفتْ في إحدى اللحظات —وكأني لم أكن موجودا معها في المكان– عن ذلك الحطام الذي تجرفه الأمواج، ونظرت بعيدا في البحر، فرأتْ صيادا يُبحر بقارب صغير بمحرك توجيه، ويتوقف به في وسط البحر، ويشرع في إلقاء شبكته، فقالت:

– قد يكون له أبناء... صغار، وإلا لما أبحر ليصطاد السمك ليطعمهم به، أو يبيعه مقابل نقود يشتري به لهم طعاما... قد تكون له ابنة يعطف عليها كثيرا... ابنة مرحة... ذكية... حيوية... بضفائر عفوية سوداء... ابنة تُزيّن له حياته... مثل ابنتي...

توقفت عن الكلام، ونظرت حولها، فرأت على الرمل هيكل سرطان فارغ؛ تتمفصل أعضاؤه، أخذته وقالت بصوت متهدج:

– أحزن للسّرطان... فَنِي جسمه الحي... فنحن كذلك نفنى... لم يبق منه إلا قِشْرا يتكسر؛ يتفتت... كذلك نحن نموت... نفنى...

ولم تستطع مقاومة نشيج، وصارت تبكي، ثم تنتحب، والتفَتَتْ، واتجهت إلى صخرة وانهارت عليها، واستمرت في بكائها، ودمعها ينهمر من عينيها...

تفاجأتُ، وهالني بكاؤها، فسألتها باهتمام عاطفي:

– كفى بكاء سيدتي... أأنت بخير... أأنت هنا لأمر همَّك كثيرا؟

لم تجب، فلم أكبح جماح شعوري بالخوف عليها، فسألتها بجدية:

– لماذا أنت هنا بالضبط سيدتي؟

رفعت حينئذ وجهها إلي ونظرت في عيني طويلا، وقالت:

– لماذا أنا هنا... تسألني لماذا أنا هنا... ضاقت بي جدران الشّقّة... ما يزال مكتبها الملمع بالورنيش في ركنه...

سألتها:

– من تكون صاحبة المكتب هذا؟

لم تجب على سؤالي وأردفت:

- ما تزال عليه كتبها، وكراساتها، وأقلامها، ومبراة قلم الرصاص وأقلام الألوان، وفرشات الأصبغة، ورسوماتها، وأقراطها وخواتمها، ومِشدّ شعرها، وحلقة معصمها الجلدية...

غلبها النشيج، فلم تستطع متابعة كلامها، ولم أقل أنا لها شيئا، ثم عادت واستمرت قائلة:

- ابنتي... ابنتي الوحيدة...

انتفض جسدي وقلت في نفسي: «أكانت ابنتها غريقة في هذا البحر في موسم الصيف الفائت؟»، سألتها قائلا:

- أتعرضت ابنتك لحادث لا قدر الله؟

رفعت مرة أخرى عينيها في وجهي وقالت بصوت يقطعه بكاؤها:

- ابنتي ذات السادسة عشرة... الوحيدة... ماتت... ماتت منذ يومين... ماتت بالسرطان...

لم تعد لساقي القدرة على حملي، فنزلت بجذعي حتى تساويت معها، وقلت معزيا إياها، وقد حضرني ما حفظته في آداب العزاء:

- عظم الله أجرك في ابنتك، وهذا حال الدنيا، فمن أعطاك هذه الابنة هو من أمر بقبض روحها.

سكتُّ لحظة، وقلتُ:

- تجدين السلوى في أبيها...

قالت:

- مات أبوها منذ سنين، وهي ما تزال في سن صغيرة.

تألمت كثيرا، واستطردت قائلا كذلك:

- وعظم الله أجرك في والدها...

ولم تتفوه هي بأي كلمة، لقد فاهت بما كانت تحتفظ به. قلت لها:

- سيدتي؛ حتى أظل مطمئنا عليك؛ أرجوك عودي إلى بيتك فقد اقترب المساء، ولك هذا المكان؛ داومي على القدوم إليه؛ ستجدين

فيه باستمرار هذه الأشياء التي يرمي بها البحر، ويُرسبها على رمال الشاطئ، وكنت قد عرضتيها عليك وعلي منذ قليل، وتُسعدك، واحذري سيدتي فليست كل القلوب مثل قلبك.

قالت:

- أشكرك أيها السيد فلك قلب يشعر بالآخرين.

احتذت فردتي نعلها، وتحركت، وسرت أنا إلى جانبها، فغادرنا معا الشاطئ في طريق ضيق أفضى بنا إلى الشارع الكبير، توقفتُ عن المشي وقلت لها:

- تصلين إلى بيتك بسلام؛ أنت في حصن القادر.

التفتت إلي بابتسامة باكية، وقالت:

- أشكرك.

وقطعت الشارع وسارت بيدين مُسدلتين، والتفتت إلي مرة أخرى، رافعة يدها بحركة امتنان، وبابتسامة مهدودة بالبكاء.

ظللت أتابعها بنظري، حتى اختفت في انعطافة، وأنا أتساءل: «في أي سبيل من سبل الحياة يا ترى هي ماضية هذه المرأة، وبأي حال ستكون؟».

رجعت إلى بيتي، وذهني مشغول بمآل فردين من أسرة تلك السيدة الصغيرة، وبالوحدة القاتلة التي ستعيشها في الغالب بعد فقدانهما، وتوجهت إلى غرفتي، وأنا أريد أن أختلي بنفسي، تملؤني أحاسيس كثيرة، وتناولت ورقة واحدة لا غير، وقلما، وشرعت -وقلبي يدق بسرعة خوفا من أن تضيع خيوط تفكيري- أكتب ما ينتهي القارئ الآن من قراءته.

اَلـمُتجَمِّلةُ بالـمَاسِ والذّهَب

نظر قائد مركب خشبي؛ مُتقن بأُبهة كلاسيكية من أربعينيات القرن العشرين؛ إلى عقربي الوقت الأخير من الليل، وحدّق في خريطة الإبحار المبسوطة أمامه، وأمر بطي الشراعين، وتشغيل محرك يُتحَّكم في تحريكه للمِروحة الدافعة؛ وهو يُبصر بمنظار العدستين المُكبِّرتين شاطئا بعيدا؛ يسطع على رماله ضوء مصباح خافت؛ ويتثبّت من تنفيذ طلب؛ سائلا:

– هل القارب جاهز بمجذافيه؟

أجابه أحد البحارة بنبرة حادة وسريعة:

– نعم، ومجذّفُه مُستعد.

ورفع الربان عينيه المنهكتين؛ دون أن ينطق بأية كلمة؛ في رجل يقف أمامه بتأهُّب؛ يحمل على كتفه كيسا طويلا ذي متانة اصطناعية، وتتبعه بهما حتى نزل من سطح السفينة إلى القارِب، وسمع ضربات المجذافين في الماء تُبحر به في الظلام إلى الشاطئ؛ كان هذا تنفيذا لأمر –بنقل الرجل إلى الساحل– مُوجه إلى القائد من مجهول له قتلة يُؤْجِرهم بسخاء؛ في مخالفته له نهايتُه.

اِرتفع موج فصل الرياح بالقارب، وهوى به، وغطت سحب رمادية وجه السماء، ونزلت منها القطرات بغزارة، فوطِئ الرجل بقدميه الرمال؛ مُبلَّلا بالمطر وماءِ البحر، وألقى نظرة إلى القارِب وهو عائد؛ وتساءل قائلا: «هل سيكون له حظ في البحر الهائج؟»؛ أن

لا يعرف بحار القارب الساحل الذي رسا به من نجاح الخطة؛ وأن يبتلعه المحيط الهائج من تمامها.

خلا المكان لجو الرياح الشديدة، ولوقت من السنة قليل القاصدين إليه؛ فكان ساكنا لا يَسْمَع هو فيه إلا صوت العاصفة، وبرغم ذلك تأكدت عيناه من أن الظلام لا يُخفي شبحا مُتطفلا، ثم خطا إلى جهة بعينها؛ كان قد ضبط موقعها بدقة على الخريطة؛ بها رمال مُتترِّبة وصخور، وسار بين صخرتين مضطرب الخواطر والهواجس، وصور من ماض مُخز تتالى عليه؛ بين الصخرتين بول وبراز؛ زكمت رائحتهما أنفه؛ فأخرج من جيبه منديلا تكمم به، وأخرج مِجرفة قصيرة من الكيس، وشرع يحفر بشفرتها الحديدية في طبقة من قواقع المحار؛ تكاد أن تتحجر بحبات الرمل، ويُزيلها بها عن الشيء الذي ينبش عنه فلم يجده، فتراجع مندهشا، وقال في نفسه:

– أين هي الجثة؟

صار يحفر في أي اتجاه؛ حتى كشف عن عظام بشرية عليها نسيج من ثوب؛ بلي بالقِدم، ودُهِش مرة أخرى، وقال:

– هذه قطع من ثوبها، ولكن الجثة ليست في موضعها!

واختطف بصره حبل مفتول من خيوط اصطناعية قوية؛ مُلتفّ حول فقرات العنق؛ قال:

– وهذا حبل من حبال شباك الصيد لم يكن موجودا!

صار ينقب بين العظام والثوب الرث عن شيء آخر؛ حتى أدمت القواقع رؤوس أصابعه، اِرتج جسده، وارتعد وجهه، وقال:

– أين هو السوار، والماسة، والأقراط، والدمالج الذهبية؟

وأسرع بالحفر في جميع الجهات، دون أن يجد ما كان يريد أن يظهر له، اِشتدت دهشته وتعجُّبُه أكثر، وقال:

- وأين هي جثته هو؟

رمى بالمجرفة جانبا، وولى بخطوات مرتجفة، ثم سار؛ يلتفت مرة بعد مرة وراءه فاحصا محيط المكان، ومُحترسا في نفس الوقت من أحد قد يشاهده، سُرعان ما استرجع هدوءه، وصرامته، لم يكن يصر على تنفيذ فعل؛ ودون خوف أو تقدير لعاقبة فيه، صنعت منه مفاجأة المأساة، والتي دفعته إلى ارتمائه في أعمال خارج القانون، وغير مشروعة؛ رجلا أشد بأسا وخطرا؛ يقاوم مخلوقا عاتيا، ولم يرجع لجثتها إلا ليسترجع حليها النفيسة بشجاعة؛ التي لم يهتم بها آنذاك؛ كانت نفسه في ذلك الوقت فقط تضطرم غيرة منه، وحِقدا عليها؛ قال: «فانتقمت منهما لنفسي بأن أنهيت حياتهما، وطمرتها القواقع هناك التي لا يتوقف جامعو المحار -بعد فصلها عن الرّخويّ- على رميها في الهوة بين الصخرتين»؛ رفع ياقة مِمطره وقصد صخرة جلس تحتها؛ مُحتميا من المطر، والرياح الباردة؛ تذكر ما وجد منذ قليل؛ مُتفكرا فيه ناطقا: «جثته هو غير موجودة، وجثتها هي ليست في الاتجاه الذي رميت بها إليه؛ ماذا يعني هذا؛ أنبش عنهما أحد وأخذ الحلي؟ وجثته هو أُنقِلت إلى مكان آخر؟»؛ وفكر في حبل الشباك، وقال: «الحبل دليل على أن أحدا خنقها؛ ألم تمُت بضربة المرساة؟».

أعيا جسده التفكير في لغز ما صادف؛ حتى ذلك الوقت، والبحث بعمق فيما يمكن أن يكون قد وقع، وتضيق نفسه حين يشك في أن أحدا يكون قد تابع عودته بهما ميتين من البحر

بالقارب، فترك رأسه وظهره ينهاران على الصخرة، ولم يحس بنُتوءات قواقعها المتحجرة؛ ليستريح إلى حين من الوقت، فعاد إلى ذلك الصيف من ذلك العام؛ مُسترجِعا الحادثة الدموية؛ من أولها إلى آخرها؛ كانت بدايتها في توفقه في العمل بإحدى الشركات بأجر يكتري منه سكنا بحجرات مريحة، ويصرف منه فيما يحتاج إليه في يومه، ويشتري منه ألبسة أنيقة، ويخطط للمستقبل القريب؛ بأن يدخر منه لاقتناء بيت، وتزوج من فتاة أبوها من ميسوري الحال؛ جميلة القد؛ عيناها واسعتان، وابتسامتها المشرقة دائما؛ تغريانه وتزيده حبا وألفة بها، وقربة منها، واصطيافهما في كل عام لن يكونا إلا في (فيلا) تُطل بلياليهما الساخنة على برودة وصخب البحر؛ مدة شهر تكفي ليُمتعا نفسيهما حقيقة بما كانا يحلُمان به، وهما ما يزالان في عمر الأحلام.

كانت عطلة التصييف الثانية، وكان الشاطئ صخريا، فكان لا يختاره إلا القليل من المُصيِّفين، ثم أنه كان بعيدا عن المدينة بأكثر من مائة كيلومتر، ولا تمتد الرمال إلا في مساحة صغيرة منه؛ يتقدم عليه مد الأمواج، وتتراجع عنه في جزر اليوم؛ تُتيح لزورقي صيد الخروج منها إلى البحر والرجوع؛ يحميها رصيف صخري من الأمواج القوية، ولا تفصل عن البحر إلا ثلاث (فيلات) صغيرة، وكوخين خشبيين يأوي إليهما الصيادان.

كان الزوجان الشابان يقضيان نهارهما وشطرا من الليل؛ في السباحة، والصيد بالصنارة، واللعب بكرة الطائرة، وفي قراءة الروايات الرومانسية، ومجلات ديكورات بيوت السعادة والطبخ، وآخر موضة

في بدلات الرجال وفساتين النساء، ولا يتركان شاطئهما إلا للتسوق من إحدى القرى القريبة بالسيارة، وحدث أن جذب نظر الزوجة أحد الصيادين؛ بقامته الطويلة، وكتفيه العريضين، وشعره الأسود الغزير والمنسدلة خصلاته على قفاه المشمّسة، وصدره ومرفقيه الزّغِبين، فتكررت بينهما في الأيام اللاحقة النظرات، فالابتسامات، فتحيات الصباح والمساء؛ بالإشارة أو النطق، فراحة يد الصياد تفور حرارة وخشونة، فاشتهته، وغمر هو بعينيه جسد أنثى لين متعطش؛ يتحلى بالماس المتلألئ، والذهب البراق؛ بعينين سوداوين غائبتين، وحاجبين مُهذّبين يتحركان بالسواد، وشفتين تلمظان رائحة الرجل، فعقدا موعدا لرغبتهما المتأججة في يوم طوقت فيه عنق زوجها، ولثمته بحركة نسوية إغرائية، وقالت بهدوء: «اذهب حبيبي إلى السوق؛ أريد أن أجلس وحيدة على صخرتنا؛ تاركة العنان لعيني إلى ذلك الأفق؛ حتى أشبع من مصيفنا؛ إذ لم يبق إلا أسبوعا على عودتنا»؛ قال لها؛ مُلبيا دائما رغبتها: «افعلي ما يحلو لك حبيبتي».

تذكر بعد خمس دقائق وهو يحث مركبته إلى السوق؛ أنه نسي حافظة النقود، فأدار المقود مُغيرا اتجاهه راجعا، وما إن استسلمت قدماه لانحدار التلة؛ حتى رأى صخرة سمرهما فارغة من زوجته، فتابع سيره إلى (الفيلا)، فلم يجدها فيها، فطفق ينظر في أرجاء المصطاف باحثا عنها، همس لنفسه: «أهي في حديث مع إحدى المصطافات؟»، ولا هي في ذلك، فلم يظهر له غير كوخ الصياد الخشبي فاتجه إليه هامسا مرة أخرى لنفسه: «أتكون هناك لحاجة لها فيه؟»، نظر من بين فُرَج الألواح، فشاهد الصياد بجذعه العريض

يركب جسد زوجته؛ كان يقضيان من بعضهما البعض وطرهما، وهي خاضعة له بكل أحاسيسها؛ في صمت لا يقطعه إلا أصوات أنفاس منها، فهاله هذا، وتراجع مُضطرب الذهن على الرمل؛ بقدمين دون وقع؛ حدثته نفسه بأن ما يأتيانه من ذاك الفعل هو بينهما؛ يحجبانه بستار عدم الكشف عنه، ويستحيي ثالث أن يراهما، ويباغتان هما بوجوده، فيصفعون بعضهم البعض بوجوه مُبصِرة، فيكون قد نجح في منح لغيرته المضطرمة وقتا، لتُملي عليه ماذا سيفعل بهما. رجع إلى الطريق تاركا سيارته تسير به، وصوت تهييجِ زوجته لا يفارق ذهنه، وحاول أن لا يفقد ثباته، واستنشق الهواء بعمق، وأدار وجهه إلى البحر مستعيدا هدوءه بنسيمه البارد. قضى ثلاث ساعات في طرق البادية؛ في اللانهائي؛ اِنمحت أهدافه، ثم عاد؛ وجدها قد خرجت لتوها من الحمام؛ تفور منها سخونة مائه؛ مُرتدية لباسه؛ مُلملمة شعرها بمنديلِه النشّاف؛ يُعطِرها صابون الخزامى؛ أيقن بأن الظاهر تجمّل. نظرت عيناه في وجهها، وسمع ضحكته؛ وقال:

– لم أشتر شيئا، فإني نسيت الحافظة.

قالت وهي تنظر إليه؛ من تحت رمشيها العلويين؛ بملامح حِيطة؛ تقرأه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه:

– لا بأس حبيبي؛ ما بقي لنا فيه كفاية اليوم؛ غدا سنتسوق معا.

في منتصف ليل اليوم التالي، والموج يحفر في حبات رمل قدميه الحافيتين مدة ساعة؛ قرر فيها الانتقام منهما، وكان ما قام به هو أنه كرر الحديث مع الصياد؛ مُبديا إعجابه بحرفة الصيد ومخاطرها؛ قال له بعد ظهيرة ذلك اليوم؛ مُتغلغِلا إلى نفسيته ليؤوب من

خطيئته: «أود أن أختم تصييفي برحلة بحرية بزورقِك؛ في وقت من غروب الشمس إلى منتصف الليل؛ ترافقنا فيها زوجتي طبعا؛ تُطمئننا مرساة الأعماق في تمايلنا بموج البحر». ركِبَت القارِب بفستان تبدو من شفافيته أطرافها بضّة مُشتهاة؛ متجملة؛ مُتحلّية بالماس والذهب، وشوى الصياد سمكا حيا على مجمر القارِب، وحمّص عليه الخبز، وأغلى عليه الشاي.

نطق بصوت مسموع كأن لجماد محيطه آذان: «... ورفعت المرساة من الماء بكل قوتي وضربت بها رأسه فسقط، وأرسلتُ رؤوسها الحادة والثقيلة إلى رقبتها فسقطت هي كذلك، وشحنتهما جثتين هامدتين إلى اليابسة، فماذا وقع؟».

حاول استرجاع لحظة صوتي ألمهما، ولحظة تلطخهما بدمائهما، وما سمعه من الذي يستثمر فيما له ربح مضمون؛ يتطلب التفكير في كم من طريقة ليظل بعيدا عن التقنين والمراقبة والمتابعة؛ بعد عشر سنين، وفي أحد المساءات، وهو مستلق في طقس البحر المتوسط؛ عار إلا من خرقة عورته مُصوّرة بشموس صيفية؛ يمتد أمامه بساط من عشب مُشذّب، وما بعده حاجز قصره الزجاجي؛ يطل على صخور؛ بينها مَعبر يؤدي إلى بحر يطفو عليه مركب بصالونات الجِعة والاسترخاء؛ كان قد لبى استدعاءه له؛ قال له: «كُنتَ قد التقيْتَ في مقهى بمدينة البوغاز بعميلنا، وحكيت له بأنك ضبطت زوجتك مع رجل في خُلوة هُيام، وانتقمت لكرامتك بأن قتلتهما، ودفنت جثتيهِما، وأنه سعى مُستخدَمُنا ذاك إلى أن يحصل على موافقتنا بأن تجتاز البحر إلينا؛ هاربا من الخزي والعدالة؛ بهوية بلاد أخرى يسرناها

لك باحترافيتنا، وكلفناك بمهمات لا تورطك في القتل؛ هرَّبت لرِبحنا فقط الأسلحة، والأدوية المقلدة، ومُستخلص النبات المخدر»؛ قال له: «إنكم تفضلتم بذلك علي، وإلا كان سيقضي علي اليأس»؛ سأله مالك مُشغّليه قائلا: «أأنت متيقن بأنك قتلتهما؟»؛ أجاب بارتباك: «لقد تضرجا في دمائهما»؛ قال له: «من عُملائنا من تكوّن باستمرار مدة تزيد عن عشرين عاما؛ في قتل من طمح أن يكون ندا لنا، ويتسبب في إفلاسنا؛ فَحَصَتْك لجنة منهم، فتبين لها بنسبة ثمانين في المائة بأنك لست قتّالا... إنك لن تقدر على أن تذبح دجاجة، وحَلّلتُ من جهتي كيفيتَك وأداتَك، فانتهيتُ إلى أن في عجلتك التي أدت إليها صدمتك؛ هدت من عضلاتك؛ فقد تكون ضربتاك في الهواء، ولم يكن دمك قد برد بعد غليان غيرتك، وقد أحسا بذلك منك في تلك اللحظة، فيكونا قد تماوتا أمامك وإن أدميتهما بخدوش؛ وأهلت عليهم الأصداف بدلا من التراب مُسترِحما نفسك لهما؛ ستعود بك سفينة إلى ساحل بلادك؛ يُبحر بها ربان مخضرم بخشبها المدهون بالورنيش؛ إلى بحار ما وراء خط الاستواء؛ يُمجّد مالِكَها، وهو من الأثرياء؛ إن كانا فعلا ماتا فاحفر عن ماسها وذهبها؛ أليس هذا تركة زوجتك؟ ولا تُخيِّبنا فيما أعددناك له، وإن كان غير ذلك فاقتص من تشرب جلده بالكيف والكحول وشمس البحر، فخضبته سُمرة أثارت جسد زوجتك الغض؛ إليك هذا المسدس المزود بكاتم للرصاص؛ تهدده به، ولتدافع به عن نفسك؛ ستجده ذا بأس شديد».

أفاق من غفوة على نور الصباح؛ أضاء له الشاطئ؛ صاح في أعماقه: «أما يزال حقيقة حيا؟ لا وجود لجثته؛ سأتتبع إذن مسلك نجاته من الموت، وخنقه لها بحبل الصيد، ونهب حليها، ودفنها في نفس المكان، لتبقى جريمة اِرتكبتها أنا، وفي اختفائي دليل؛ أغراها فخانتني، وذهبت الغيرة بصوابي فلم أُحكم الانتقام منهما»؛ نهض وسأل مُرمّم شباك شيخ عن صياد؛ كان أحد اثنين في ذلك الزمان؛ وصفه له؛ أجابه قائلا: «كانت قامته أطول؛ وكتفاه صلدين؛ يكاد قميصُه وسُريوِلُه أن يتمزقا بعضلاته القوية»؛ أردف بعد هنيهة سكوت قائلا: «كان في هجرته إلى إحدى قرى الصيد؛ توجد في الجنوب تحسُّن في حاله؛ يمتلك قوارب ومركب صيد، وله بحارة خاضعون له».

لم يتسرع في وقت ومكان عزله عن عمال صيده، ولا في طريقة انكشافه له، فتظاهر مدة من الزمن بالتسكّع في طول الشاطئ، وفي رصيف الميناء؛ على رأسه قبعة قديمة؛ يرتدي صدارا وسروالا باليين؛ يطلب عملا بإحدى سفن الصيد، فكان من بين صيادي مركب الذي أتى زوجته، أيكون قد تعرف إليه؟ لا؛ لقد كان المحترفون في العالم المجهول؛ قد خلقوا منه، وحسب كل مهمة عشرات الأشخاص، فانقرضت خِلقته الأولى، وغيرته بيئات الأرض؛ في لياليها وأنهرها، وفي صقيعها وقيظها، فسنحت له الفرصة، ففي فجر غيوم دكناء؛ أخفت نجوم السماء، وموج البحر يصطخب، والبكرة ترفع الشبكة الثقيلة، والصيادون يملأون الصناديق بالأسماك، ويذْرون

عليها مسحوق الثلج؛ طرق مسامعهم صوت؛ يُسرعون إلى تنفيذ أوامر صاحبه؛ إنه الرايس؛ صاح فيهم:

- أنزلوا الزورق وارحلوا.

اِستغربوا ما سمعوا، ورأوا أحدا منهم يغرس فوهة مسدس في رأس رئيسهم؛ مهددا إياه بالضغط على الزناد؛ لم يعهد من يُظهر له دائما تزعمه للبحارة، وغلبته لهم؛ أن رأى شخصا يُحكم حركات قائدهم، فاندفع مبديا شجاعته؛ يريد أن يخلصه، سمعوا البحارة طلقة رصاص، ورأوا مِقدامهم ينهار برِجل مشلولة؛ ينزف دما، فجرّوه وألقوا به في قعر الزورق، وجذفوا إلى الشاطئ.

أُطلقت رصاصة أخرى في ساق الصياد الْعُتُلّ فهوت قوته، ولم تمض نصف ساعة حتى كان طرادا شرطة الشواطئ يدوران بأمواج دوّامة حول مركب الصيد؛ يستطلعون مُصوّب السلاح، وجريحه الذي ذاب هَلَعا.

الفهرس

لماذا هذه القصص؟ 3

النيزك 5

سيف التجريدة 13

حبا صبيّ إلى الموت 23

اَلْفَـرّامَـة 29

فعل أمر مُستغرب 35

آثارعلى رمال الشاطئ 41

النّبشُ عن عِظام 49

يوميات قتِيلين 59

المعشوقة والصائغ 69

الحنش المُتآلَف 75

الثّكلى 85

المتجملة بالماس والذهب 93